عبد الباقي يوســـف

إســـــلام ومســـــلمون وفقـهاء

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الرضوان في حاب سنة ٢٠٠٤

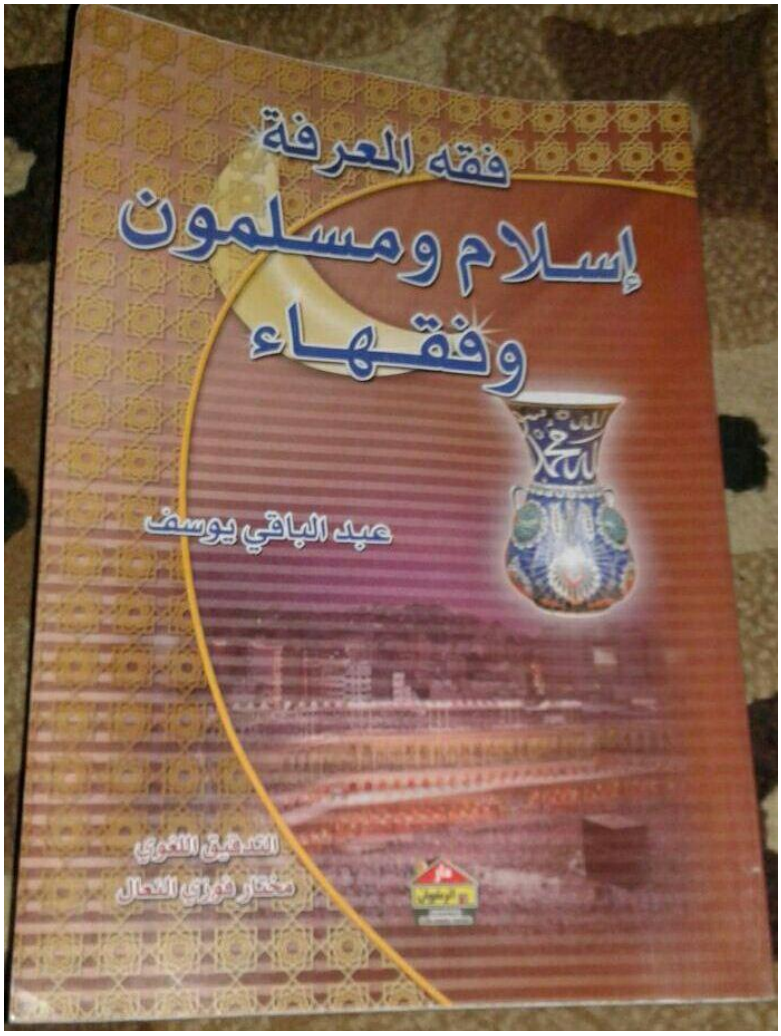

فهـرس المحتويات

مقدمــة

١ – شظايا الفقهاء

٢ – المسلمون وثقافة الموت

٣ – بين الدنيا والآخـرة

٤ – فقـه الحياة

٥ – النبـي يهدم مسجدا

٦ – فقهـاء الاستنارة

٧ – مسلم ومسلم

٨ – استفت قلبك

٩ – التطرف الاجتماعـي

١٠ – ثقافـة الانفتاح

١١ – قوة الأفكار

١٢ – لذة معرفة الحقيقـة

١٣ – إشـراقـة المحبـة

١٤ – عويل المخيلـة

١٥ – رحاب العدل

١٦ – فردوس النقاء

١٧ – هل أنا مسلم

١٨ – أنـوار

مقدمـــة

الحديث عن الإسلام هو حديث عن الله الذي أتى بالإسلام ، والحديث عن المسلمين هو حديث عن الإنسان الذي يتلقى هذا الإسلام ، والحديث عن الفقهاء هو حديث عن أناس تكمن مهمتهم في مدى نجاحهم بالسعي لإيصال الإسلام كما أراده الله – تقدست أسماؤه – إلى الناس ليصبحوا مسلمين به ، وإيصال الناس إلى الإسلام ليُسلم به . في هذا الجزء سيكون الحديث عن الإسلام الذي يمثل كلمة الله وحده ، وعن المسلمين الذين يسلمون به ، وعن الفقهاء الذين تجمعهم نسابة الفقه . وهنا كذلك سيكون التركيز على كلام الله الوارد في القرآن ، وعلى تصرفات بعض مسلمين ، وعلى فقه الفقهاء الوارد في تفاسير أو شرح هذا الكلام الإلهي والذين يمثلون ثورة الفقه في الناس.

يكون الفقيه فقيها قدر نجاحه في إيصال الناس إلى الدين وإيصاله إليهم ، وعندما ينجح في هذه المهمة سيكون قد أتم دوره وهو يقول للناس بعد أن وضع كتاب الله في أياديهم : هذا أنتم وهذا ربكم . فيشعر هذا الإنسان الذي هداه الله على يدَي الفقيه بمسؤوليته الكبرى تجاه هذا الإشراق الجديد الذي أشرق على روحه ، وسيكون أمامه أن يطوّر نفسه ليرتقي في درجات الإيمان ودرجات الدنو من الله ، سيتذوق لذة نصوص القرآن وتتعمم روحه بنور الله مع كل آية تمس جوهر كينونته كإنسان ، على عكس شخص آخر لم يكتف فقيهه الذي نظر إليه نظرة وصائية ورعائية بهذا الدور ، بل تجاوزه إلى تلقينه التفاسير التي تهيأت له أو تهيأت لغيره ، فيتعرف هذا الشخص على التفاسير

أكثر ممل يتعرف على روح القرآن ، ويحفظ كلام وتوجيهات الفقيه التي يتبرك بها أكثر مما يحفظ ويتبرك بكلام رب العزة . وعندما يباشر في قراءة كلام الله ستكون هذه القراءة محكومة بهيمنة الفقيه المسبقة عليه حتى يبدو له بأنه يقرأ الفقيه – والقرآن بيده – أكثر مما يقرأ رب العزة . هذا على الأغلب يحدث للفقهاء الذين عانوا سلبيات في طفولتهم ونموا على سياط السلطة الأبوية ، وعندما كبروا انفتحوا على تلقي الاضطهاد ذاته من واقع اجتماعي ، أو واقع سياسي ، أو حتى من واقع صحي ونفسي ما نتيجة عوامل الوراثة ، وكذلك يمكن أن يتسرب سلوك ازدواجي إلى هذا الفقيه نتيجة مستجدات العصر ، فمعلوم أن / الديمقراطية / التي ظهرت مع ظهور دول العالم الحديثة أمر مستحدث على مجتمعات قبلية وعشائرية مبنية على ذهنية الخلافة والأغوات والسلطات الاجتماعية والأبوية والذكورية وقضايا الثأر والشرف التي لامكان لها ضمن منظومة الديمقراطية ونداءات العولمة . فلايكون أمام فئة من الفقهاء وهي ليس بمقدورها تقبّل فكرة / الديمقراطية / كما ليس بمقدورها تقبل فكرة التخلف عن ركب العصر، غير استخدام الفقه لمحاولة إثبات شخصيتها وتعويض النقص الذي عانته في مراحل الطفولة والذي تعانيه الآن . فينظر الفقيه في هذا المذهب إلى الناس على أنهم طلاب فقهه الذين هم تحت الوصاية الفقهية وهو الوصي عليهم وبذلك فهو يسعى جهد أيمانه ألاّ يصل خطاب الله إليهم إلا عبر شروحاته وتفاسيره وفقهه معطيا صورة عن الله بأنه عاجز من إيصال كلمته إلى عباده إلا عن طريق هذا الفقيه . وإذا أتيح لنا أن ننظر إلى تعامل هذا الفقيه حتى في تفاصيل حياته اليومية ، سنراه يمارس ذات السلوك الاستبدادي . فهو أب مستبد بأولاده ، وزوج مستبد بحليلته ، وأخ

مستبد بأخوته ، وصديق مستبد بأصدقائه . حتى لوقام هذا الرجل بعمل إداري ما ضمن اختصاصه فيكون مديرا مستبدا بموظفيه ، يسعى دوما لأن تكون له الأولوية والوصاية وأن تكون كلمته هي الأولى ، وتكون كلمة مَن دونه هي الثانية وتكون كذلك مقترنة بالموالاة لكلمته الأولى وإلاّ تحوّل إلى عدو لهم وتحولوا بنظره إلى أعداء له ، فهو بنظر نفسه وكيل ومفتي استثنائي عن الله في أرضه . وعلى قدر ما يجد هذا الفقيه أناسا ينضمون إلى حزبه وتفاسيره وفقهه وكلمته الأولى ، على قدر ما يلقى إنكارا من فئة أخرى ترفض هذه الوصاية ، وهنا تولد مرحلة مايمكن تسميتها بالانشقاق بين تيارين فقهيين قد تبلغ في بعض مراحل تطورها إلى أن يكفّر فقيه فقيها ، وأن يحل دمه وعرضه وماله وكلاهما يرفعان راية ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويتجهان للصلاة إلى قبلة واحدة . لقد كان توجيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم دوما إلى كتاب الله فقال عليه الصلاة والسلام : / خيركم من تعلم القرآن وعلمه / . ١فلايكون للمعلم أن يعلّم القرآن قبل أن يعلمه ، ولذلك لم يكن الحديث : خيركم من قرأ القرآن وعلّمه . لأن ليس كل قارئ بعالم ولكن كل عالم قارئ ، ناهيك عن أن بعض هؤلاء (الفقهاء) لايقرأ القرآن وهو يقرأه ، فليس كل قارئ كذلك هو قارئ كما أن ليس كل ناظر هو ناظر ، ولاكل سامع هو سامع . قال المصطفى في وصف القرآن : / إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع ٠ عصمة لمن تمسّك به ونجاة لمن اتّبعه . اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إني لاأقول (ا لَم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف / ٢ . إن قارئ القرآن هو كثير الوقوف أمام الكلمات وأمام الحروف وهو في أثناء قراءته كثير التأمل وكثير

الخشوع في حضرة ربه ، وهو رجل بالغ الصبر والحكمة وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم : / الماهر بالقرآن مع السَفرَةِ الكرام البررة / ٣ . كل هذا حتى يبقى القرآن الكريم هو دليل الإيمان الوحيد ويبقى العلماء هم طلاب القرآن ، وعندذاك يقفون في صف واحد ،تفوح منهم رائحة التوحيد . في صيح ابن حبان : / تعلموا القرآن واقرؤوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو في جوفه ، مثله كمثل جراب أُ كى على مسكٍ / . ويقول كما في المستدرك بإسناد صحيح : / من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لايوحى إليه / ، ويقول فيما رواه ابن حبان في صحيحه : / يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْ قَ ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها / . وكذلك ورد في صحيح ابن حبان قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوجه عامة المسلمين إلى كتاب الله : / عليك بتلاوة القرآن ، فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء / . و فيما رواه الحاكم بسند صحيح : / إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب / . وقد يكون الخلاف بين قارئ قارئ ، وقارئ لاقارئ ، أو يكون بين قارئ لاقارئ ، ولاقارئ قارئ ، بيد أنه لايكون بين قارئ قارئ ، وقارئ قارئ . وقد تبلغ مرحلة التناحر بين المسلمين أنفسهم تحت / لواء / هذين الفقيهين إلى إلحاق الأذى الفادح بحياة وممتلكات وأعراض مئات الآلاف من المسلمين وغير المسلمين وعلى مر الزمن ، ومن طرف آخر قد يجعل البعض من أبناء المسلمين ومن غير أبنائهم ينظرون إلى هذه التصرفات على أنها تصرفات من صلب الإسلام فيقفون موقفا سلبيا من الإسلام ومن الله وكأن هؤلاء هم الذين أنزلوا

الإسلام وأرسلوا الأنبياء وقسّموا الأرزاق ووهبوا الأعمار وخلقوا الكون في سبعة أيام وهم الذين يجلسون على عرش الرحمن . روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود رحمهم الله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مُر)) . والحقيقة فإن مايرد وفق منهج في غير محله يمكن أن يولّد نزعات متناقضة داخل هذا الإنسان الذي يتفاعل في نهاية الأمر مع الصواب كما يتفاعل مع المنهج القويم ٠ ففي حالات اللاحرب يمكن أن تبدر كذلك سلوكيات سلبية من هذا الشخص الذي تلقى الدين من فقيهنا الذي واجه أزمات نفسية وتربوية وفكرية حادة في حياته عجز عن مواجهتها والهيمنة عليها تاركا إياها تنمو وتتطور في دواخله وتهيمن على نزوعاته الباطنية . ففي حالات اللاحرب هذه وعندما ينخرط أبناء هذه الفئة من المسلمين في وقائع الحياة الاجتماعية اليومية سواء في ديار المسلمين أو عندما يكونوا لاجئين في ديار غير المسلمين ، فإن السلوكيات السلبية تلبث تصدر عنهم في كل قول وعمل يقومون به . فهاهو هو يؤدي شعائر الإسلام بيد أنه رجل أفّاك ومحتال ولايؤتمَن على مال أو عرض أو سر ، ويمكن أن نرى أن كل إنسان يفسر الإسلام وفق مصالحه ، فهو يجعل الله معاقبا وهو الذي يجعله عفوا . والأب لا يقدّم الله لأبنائه إلاّ بما يعزز سلطته الأبوية عليهم ، حتى الرجل الذي له علاقة آثمة بامرأة فإنه يقدّم لها الله وفق ما يحقق رغبته الجسدية منها

، فهو / الغفور الرحيم / يرحمهما برحمته الواسعة . في حين يقدّم الله / الشديد العقاب / لزوجه إذا وقعت بنظرة على غيره ولايخلو الأمر من تلميحات / بإذن الله / كذلك بتهديد حياتها الزوجية . وهذا أيضا من شأنه أن يجعل البعض من أبناء المسلمين ومن غير أبنائهم لينظر إلى هذه التصرفات على أنها تصرفات من روح وتعاليم الإسلام وبالتالي يأخذ موقفا سلبيا من الإسلام ومن الله . ماهو هام هنا هو أن الناس أحرار في تفاسيرهم وميولاتهم ومفاهيمهم وأن الناس يخطئون ويصيبون . حتى الأنبياء عاتبهم الله في بعض مواقفهم ، بل لايخلو القرآن من معاتبة أبينا آدم ذاته . ومن هنا فإن محمداً الإنسان والنبي والرسول هو قارئ لرسالة القرآن بنصها الإلهي الحرفي ومبلّغها كما وردت إليه . بالطبيعة البشرية فإن الذي يدخل الإسلام ويصبح مسلما له فهو لن يغدو ملاكاً ، وربما ليس المطلوب منه أن يغدو ملاكا داخل الإسلام لأن هذا المسلم هو إنسان يحمل تراكمات وراثية هائلة عبر السلسلة البشرية التي أدت إليه ، ولذلك يلبث دور الإسلام فاعلا حتى يرتقي به الإنسان المسلم وكذلك وهو داخله يخطئ ويصيب . ولكن الفقيه لايتمتع بهذه الحرية الذي يتمتع بها إنسان السواد من الناس لأن الفتيا لديه يمكن أن تسحق مدنا بكل مافيها من ألوان الحياة ، فهو لايمثل حزبا ، ولايمثل إيديولوجية ، ولايمثل قوما ، إنه يفتي باسم الله الذي له مافي السموات والأرض ، أي أنه يقول : أنا صوت الله .. افعلوا كذا ولاتفعلوا كذا . فتتصاع فئة من الناس لصوت الله هذا الذي يتوحد في صوت الفقيه . ولاننظر إلى أن مثل هذه المفاهيم يمكن لها تُعالج بالدعوة إلى التخفيف من حالة التدين بين المسلمين وخاصة الشبان ، أو بالتخفيف من تدريس الإسلام في المناهج الدراسية كما بدأ

يحدث في بعض البلاد الإسلامية ، فالقرآن ذاته يحمل حلولا لكل أزمات الإنسان في كل زمان ومكان ، هذه الأزمات التي لم يسببها القرآن ، وقد سببها المسلمون لأنفسهم وهم يحملون القرآن ٠ ولننظر إلى الله وهو يقدم القرآن للناس :

{ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد } ٤ .

- : { يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين } ٥.

- : { وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا }٦.

- : { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما } ٧ .

- : { كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب } ٨ .

- : { ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر }٩.

- : { لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون } ١٠.

مراجع

١ - أخرجه البخاري في صحيحه
٢ - أخرجه الحاكم
٣ - رواه البخاري
٤ - سورة الزمر – الآية ٢٣
٥ - سورة يونس – الآية ٥٧
٦ - سورة الإسراء – الآية ٨٢
٧ - سورة الإسراء – الآيتان ٩ ،١٠
٨ - سورة ص – الآية ٢٩
٩ - سورة القمر – الآية ١٧
١٠ - سورة الحشر – الآية ٢١

شظايا الفقهاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه : ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء . رواه مسلم ورواه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه : ومن الغرباء ؟ قال : النزّاع من القبائل ، وفي رواية (الغرباء الذي يصلحون إذا فسد الناس) وللترمذي من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده : ((طوبى للغرباء الذي يصلحون ما أفسد الناس من سنتي)) .

وعن أبي أمية : قال سألت أبا ثعلبة رضي الله عنه ، فقلت : يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية :

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) ١. قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصابرُ فيهنّ مثل القابض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم قلنا منا أم منهم ؟ قال : ((بل منكم)) ٢ . وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضوان الله عليه ولفظه : ((إن من بعدكم أياماً الصابر فيها المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم قيل : يا رسول الله : منهم ؟ قال : بل منكم ثم قال : أنبأنا محمد بن سعيد أنبأنا أسد قال سفيان ابن عيينة عن أسلم البصري عن سعيد أخي الحسن يرفعه ، قلت لسفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم ؟؟ قال :نعم قال : ((إنكم اليوم على بيّنة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر وتجاهدون في الله ولم يظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل ، وسكرة حب العيش وستحولون عن ذلك فلا تأمرون بالمعروف ، ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان فالمتمسك يؤمئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين)) قيل منهم ؟
قال)) : لا ، بل منكم)) وله بإسناد عن المعافري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يترك ويعملون بالسنة حين تطفأ .)

ربما كان الإسلام بخير أكثر مما هو عليه فيما لو لبث النص القرآني دون كل هذا الكم الهائل والمتناقض من التفاسير المتشابكة ، ولبث الحديث الذي هو المفسر والشارح الأول والأخير للقرآن هو كتاب التفسير الذي يؤخذ به . فالنص القرآني قادر على أن يقدم ذاته بذاته ، وهو لايحتاج إلى ثورة الفقهاء والمفسرين الهائلة التي كادت أن تجعل من القرآن تحت سن الرشد وإنهم أوصياء عليه وأدلاء له ليمسكوا بيديه ويوصلوه إلى قلوب الناس . يمكن أن نرى جماعة من المفسرين أو الفقهاء أو الشرّاح يتحدثون عن القرآن إما بأنه طفل صغير يحتاج إليهم ليصل إلى صدور الناس ، أو أنه لغز غامض عصي عن الفهم يحتاج إلى نور فقههم ليبدد مافيه من غموض ٠ ومن هنا لايخلو الأمر من أن يتحول الشرح في مذهب هؤلاء إلى بعض الإضافات فيقولون وهم يقفون على أرضية أنهم بالفعل أوصياء : قال القرآن كذا ، بيد أنه يعني كذا . فيقوّلون الله حديثا لم يقله ، وكأن الله عاجز عن الشرح أو عاجز أن يقول مايقولوه .

وباء الفقه الذي اجتاح المسلمين في زماننا إلى حد تجاوز فيه عدد / الفقهاء / عدد السواد من المسلمين ، زيادة على تسرب هذا الوباء إلى أوساط هؤلاء السواد ممّا فرّخ على تلك الخلفية / فقهاء / الدرجة الثانية من فئة الأميين فترى شخصا أميا يفتي في الناس مستندا على حديث ورخصة فقيهه له . وإذا كان الوباء عادة يأخذ الناس ، فإن وباء الفقه هذا يأخذ البلاد والعباد معا . والحقيقة فإن مافي القرآن من يسر في القراءة والتلقي يفوق كل هذا الغموض الذي يضعونه فيه ، وقراءته أيسر من قراءة مايقدمون عنه من تفاسير وشروحات ذلك أن الله قد وجه هذا القرآن للناس كافة وبمختلف مستوياتهم ولم يخص به فئة واحدة حتى يصل من خلالها إلى الناس . فحتى الطفل الصغير الذي يبدأ للتو بقراءة جزء من القرآن لايجد القرآن عائقا لينير صدر هذا الطفل بقراءته ، فترى هذا الطفل يشرق بنور القراءة ربما أكثر من فقيه راسخ في فقه التفاسير ، وربما تفيض عيناه بالدمع أكثر ويخشى قلبه أكثر وبالتالي فإن قراءة هذا الطفل تكون عبادة وطاعة وخشوعا أكثر، ذلك أن القرآن قد خاطب فطرته ، وأنه تلقى نور كلمات القرآن بطريقة مباشرة وكأنه صوت الله المباشر إلى فؤاده ، ولكن فيما بعد قد يأتي مفسر أو شيخ ،أو قل ماشئت فيفسد قراءة هذا الطفل عليه ويفسد فهمه للقرآن عندما يرغم عليه تفسيرا واحدا وعليه أن يؤمن بهذا التفسير شاء أم أبى ٠ إنه أمر قاطع وكأنه وحي آخر نزل من السماء . من هنا كان حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : / إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن

يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئِلوا، فأفتوْا بغير علم فَضَلُّوا وأضلُّوا/ .

مايميز القرآن أنه كتاب عام للناس كافة بمختلف أعمارهم وأجناسهم ولغاتهم وتركيباتهم الاجتماعية ومن هذه العمومية يأتي كل فرد ليفهم القرآن وفق الحالة التي خلقه الله عليها ، فمعلوم أن الناس بكل هذه الأعداد الهائلة وعبر التاريخ البشري ، لايتشابهون حتى في نبرات أصواتهم ونظرات أعينهم وكل مولود يولد إبداعا إلهيا جديدا وليس استنساخا عن إنسان سبقه ، وإلا لما كان بمقدور الإنسان أن يشعر بعظمة المسؤولية عن سلوكه سواء الإيجابي أو السلبي ، فهو فاضل ، إذن هو نسخة مستنسخة من إنسان فاضل سبقه ، وهو شرير، إذن هو نسخة مستنسخة من إنسان شرير سبقه . وهنا حتى القوانين والشرائع الدنيوية والإلهية ما كان بوسعها أن توجه إليه عقابا ، فما ذنبه إذا جاء مستنسخا عن كائن شرير ، وما هي فضيلته إذا كان مستنسخا عن إنسان فاضل . وربما من أجل الحفاظ على هذا المسؤولية والخصوصية الإنسانية يقف الأخلاقيون ورجال بل ونساء الدين أيضا موقفهم السلبي من عملية الاستنساخ البشري لأن الإنسان المستنسخ ليس بوسعه أن يتميز بميزة الخصوصية الفردية وبالتالي إذا ارتكب جريمة لاأحد يبارك توجيه العقاب إليه ، وكذلك إذا قام بعمل فاضل فلا أحد يبارك مكافأته .

فالكائن المستنسَخ لاهو بالكائن الماضي الميت ولا هو بالكائن الحاضرالحي ، وهو فاقد لهويته لأنه فاقد لخصوصيته الفردية .

ينطلق الإنسان الطبيعي من هذه الميزة التي وهبها له الله فيكون بإمكانه بناء علاقة خاصة بينه وبين ربه . أجل ، حتى الطفل الذي هو دون سن الرشد له

علاقة خاصة وله أسرار وحكايا وعالم متكامل مع الله . تحت كل هذه السماء المضيئة يمنح الله الحرية المطلقة لإنسانه ، هذه الحرية المطلقة التي لايمنحها حتى الإنسان لنفسه أو ولده أو مَنْ هم تحت رعايته أو وصايته ، ذلك أن الله أكبر ، أن الله أوسع ، أن الله أرحم . وحتى الذي يكفر فإن الله الذي / يسبّح الرعد بحمده / يأمر نبيه : / قل يا أيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ولاأنتم عابدون ما أعبد ولاأنا عابد ماعبدتم لكم دينكم ولي دين / . فيتمتع الإنسان وهو تحت سماء الله المشمسة ويمشي في أرضه الرحيبة ويضيء ليله بدر الله ، وينعم بنعم وآلاء الله بحرية أن يؤمن أو يكفر ، ولايكون تحت الوصاية الإلهية .

وهذه هي الحرية المطلقة التي يخشى حتى الإنسان أن يهبها لنفسه ، ومن روح هذه الحرية تشرق علاقة الإنسان بالله ، ومن روحها كذلك يعقد الإنسان كل آماله على الله في أي مكان أو زمان ، ولذلك عندما يكفر الإنسان يكون لديه أمل بأن الله سوف يغفر له خطيئته ويتجاوز له عنها عندما لايستمر في الخطيئة ، وعندما يقدم أعمالا فاضلة كندم منه على تلك الخطايا التي ارتكبها ، وكذلك كبرهان منه بأنه إنسان فاضل بيد أنه ارتكب خطيئة ، خطيئة إنسان فاضل . لاأظن بأن القرآن يحتاج إلى كل هذه الثورة وهذا الحشد من المفسرين والشرّاح ، فيبلغ الأمر ببعض الفقهاء والمفسرين إلى تشكيل ميليشيات / إسلامية / تحت لواء القرآن ويلحقون الويلات بالبلاد والعباد ، يؤذون الإنسان والطير والنبات والجماد ٠ وكأن القرآن ليس فيه غير علم التفسير فيأتون ويجتزئون منه آيات يدعمون بها ميولاتهم ٠ يقول القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه / قانون التأويل / : / إن علوم القرآن خمسون علما وأربعمائة وسبعة

آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن / ٣ . وقد قسم ابن عباس التفسير قائلا : / التفسير على أربعة أوجه ، وجه تعرفه العرب من كلامها . وتفسير لايُعذر أحد بجهالته ٠ وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه إلا الله تعالى / . قال الإمام الزركشي : / وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو لايجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعلى العلماء إعمال الشواهد والدلائل وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه / ٤ . وهذا الغنى في سعة معاني القرآن يجعل العالِم أن يتردد ألف مرة قبل أن يفتي بفتيا ، أو يقدم تفسيرا لنص إلهي ولذلك تكاثر الخلاف بين المفسرين منذ صدر الإسلام ومن هذا الخلاف :

١ – اختلاف القراءات بتعدد وجوهها
٢ – اختلاف وجوه الإعراب في الآية
٣ – اختلاف أهل اللغة في معنى الكلمة الواردة في الآية
٤ – اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر
٥ – احتمال الإطلاق والتقييد في الآية
٦ – احتمال العموم والخصوص في كثير من ألفاظ الآيات
٧ – احتمال الحقيقة والمجاز في الآية
٨ – احتمال الإضمار أو الاستقلال فيها
٩ – احتمال الحذف أو الزيادة في أداء اللفظ للمعنى
١٠ – احتمال التقديم والتأخير في كثير من الآيات
١١ – احتمال النسخ أو عدمه في بعض الآيات

١٢ – اختلاف الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة التابعين ، وهذا يعود لتعدد المعاني في الآية التي وردت فيها تلك الروايات ٥ .

في جميع بقاع العالم وفي مختلف الأديان والمذاهب والأيديولوجيات توجد تنظيمات وأحزاب وميليشيات تحمل أسماء ثورية أو سياسية أو فكرية ، وهذا أمر يحدث في عالم الإنسان وهو يسعى لأن يرفع عن نفسه الظلم أو يحقق مطالبه المشروعة ، بينما الذي يثير الريب هو أن تحمل فئة اسم الله ، وفئة أخرى تحمل ذات الاسم وبدل أن توحدهما كلمة الله فإنهما بحمل هذه الكلمة يصبحان أشد عداوة وبغضاء مما لو وضعوها جانبا، ورفعوا رايات أخرى . وإذا ألقينا نظرة إلى تاريخ العنف الذي يصدر من أبناء الإسلام الذين يرفعون رايات الإسلام نرى بأن ما ألحقه المسلمون بالمسلمين من ويلات وحروب ودمار يفوق مالقيه المسلمون على أيدي غير المسلمين ٠ فترى حربا تستغرق سنوات طويلة بين جيشين مسلمين يُقتل فيها ملايين المسلمين وكل جيش يرفع راية الله ويقول بأن قتلاه شهداء في الجنة ، وقتلى الطرف الإسلامي الآخر في النار ٠ وترى أن كل واحد يحمل بيد اسم الله وبالأخرى قنبلة فتاكة ، وفي لحظات الهدنة يبركون جميعا لقراءة القرآن ويتجهون إلى قبلة واحدة للصلاة ، ثم مايلبثون فيوجهون البنادق والقنابل إلى بعضهم البعض حتى يكاد قول الشاعر يأتي عليهم :

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

عن عثمان بن سليمان عن جدته أم أبيه قالت : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أريد الجهاد في سبيل الله ٠ فقال : ألا أدلك على جهاد لاشوكة فيه ؟

فقال : بلى ، فقال : حج البيت ٦ . تبقى العبادة التي تقرب الإنسان من الإنسان هي التي تحتل المرتبة الأولى لبلوغ الغاية من نزول الإسلام ٠ وقد أقسم رب العزة والجلال بالفجر وليال عشر ، والفجر هو بدء يوم جديد ، والليالي العشر هي مفتتحة شهر حرام هو ذو الحجة ، فيها يقصد الحاج بيت الله الحرام ، وفيها يوم عرفة الذي يغفر الله لعباده فيه مغفرة يحزن لها الشيطان ويغتمّ لِما يرى من تنزل الملائكة والرحمة من الله على عباده ، ومباهاته سبحانه بأهل عرفة ملائكته ٠ وفيها يوم الحج الأكبر ، يوم عيد الأضحى ٠ يقول رسول الإسلام : / مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام العشر ٠ يقولوا : ولاالجهاد في سبيل الله

يقول : ولاالجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء / .

إن ما يشكّله المسلمون من خطر على أنفسهم وهم يحملون هذه الرايات الخفاقة ويكفّرون بعضهم البعض لهو أكثر بكثير مما يشكله غير المسلمين من خطر على المسلمين ، بل يدعو إلى أن يستنجد المسلمون في بعض المراحل بغير المسلمين لحمايتهم من خطر إخوانهم المسلمين عليهم ٠ والحقيقة فإن كل هذا يحدث من هذه الثورة في التفاسير لأن كل حزب من هذه الأحزاب يمضي تحت لواء فقيه أو شيخ يمشي في الطرقات ويده على الخنجر الذي تحت

حزامه ويدعو الناس ليقتدوا به . روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن ناسا من أمتي سيماهم التحليق يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية هم شر الخلق والخليقة).

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ينبغي لقارىء القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبورعه إذا الناس يخلطون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخضوعه إذا الناس يختالون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون) . و قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : (كنا نحفظ العشر آيات فلا ننتقل إلى ما بعدها حتى نعمل بهن) وروي عنه أنه حفظ سورة البقرة في تسع سنين وذلك ليس للانشغال عن الحفظ أو رداءة الفهم ولكن بسبب التدقيق والتطبيق .

و قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : (إنّا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به ، وإنّ من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به) .

و قال عثمان بن عفان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: (لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن ٠) .

و قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : (إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين) .

و قال أنس بن مالك رضي الله عنه : (رب تال للقرآن والقرآن يلعنه) .

و قال عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : (لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم

فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها ، وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين الفاتحة إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ، ينثره نثر الدقل) .

إن الأجيال الإسلامية تحتاج إلى أن تقرأ القرآن أكثر مما تحتاج أن تقرأ التفاسير ، وتحتاج أن تشرق بنور قراءة القرآن أكثر مما تحتاج إلى أن تتمسك بأذيال جلابيب المفسرين وهي تحمل سيفا بيد وقرآنا بيد وعيونها مغلقة : / مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون / ٧ . وليس عيبا ولانقصا إذا نظرنا إلى الآخرين وأخذنا منهم الثقافة والحكمة ، وأظن بأن أي قسيس في العالم مهما أوتي من علم فإنه لايقدر أن ينجح في إقناع شخص من أبناء دينه ليجعل من نفسه قنبلة في حشد من المسلمين سواء في مكة أو الرباط أو عمّان أو ستوكهولم ، وذلك لأن ثقافته تمنعه من أن يستجيب لهذه النزعة العدوانية للقسيس ، وربما لأن القيسيس ذاته يدرك هذه الحقيقة وبناء عليها لايقدم على مثل هذه الفكرة التي قد تنقلب عليه ويُطرد من الكنيسة كلها . ولكن بمقدورأي فقيه متواضع في فقهه أو نصف فقيه أن يقنع عشرات الشبان بكلمة واحدة فيتحولوا في لحظات إلى شظايا تحرق الإنسان والحيوان والنبات والعمار وتفسد البيئة على الأحياء سواء في بلاد المسلمين أو في بلاد غير المسلمين . ليس بوسعنا أن نفصل هذا الأمر عن مفهوم هؤلاء الناس عن الإسلام ، هذا المفهوم الذي ترسخ لديهم نتيجة تفاسير الفقيه ، وكما أن هؤلاء يقدمون على ذلك بعد إصغائهم للقول الديني ،فيمكن أن يكفّوا عن ذلك أيضا عندما

يصغون لقول آخرفي الدين ، هذا القول الديني الذي يمكن أيضا أن يعدلهم عن أفكارهم السابقة ، وليس من سبيل آخر غير الدين ذاته للبحث عن علاج لهذه المعضلة ، وعلى سبيل المثال فليس بوسع أي زعيم تنظيم ثوري أو سياسي مهما بلغ من عدالة قضيته أو نفوذه السياسي أن يقنع عضوا من أعضاء تنظيمه ليجعل من نفسه قنبلة موقوتة تتحول إلى شظايا حتى لو ربح تنظيمه الكرة الأرضية كلها ، ولو حدث ذلك فلن تكون أكثر من حالة استثنائية نادرة الحدوث ، ولن تكون ظاهرة كالتي نشهدها عندما يهيمن العامل الديني على الأمر .

من هذه النقطة البالغة الحساسية يمكن لنا أن نعيد النظر في مناهجنا التربوية والتعليمية ، وبخاصة المناهج الدينية التي في بعض فصولها تعزز الرغبة في الموت لدى الطلاب ، وتجعل من الكائن البشري مخلوقا تافها في الحياة ، وتقتل فيه كل آماله وأحلامه وتجعله كائنا بلامستقبل في هذه الحياة لأن كل مستقبله كامن فيما بعد الحياة . أما الحياة وزينتها ومستقبلها والكفاح فيها فهي لأولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا ولاعلاقة لهم بالآخرة ، وهؤلاء هم الكفرة الذين يجب قتالهم . ورغم كل هذه النداءات التي تعشعش في عقول ونفوس الطلبة فإنهم لايجدون مهربا من الشعور بعمق الازدواجية في تفاصيل حياتهم اليومية . فهؤلاء / الكفرة / يقدّمون كل إنجازات العصر ويتحلون بروح الديمقراطية والتسامح ، بل يمكن لهم أن يقدّموا للمسلمين مساعدات هائلة على الصعيد الاقتصادي والأمني والتعليمي ، والمسلم يتفاخر عندما يهبه هؤلاء شهادة جامعية أكثر مما يتفاخر فيما لو منحته جامعة محلية هذه الشهادة ، وعندما يمرض يلوذ بالغرب ، عندما يستخدم تقنيات العصر يلوذ بهم ، بل

حتى عندما يريد أن يستقر في تأمين أمواله فإنه لايجد أأمن من بنوك هؤلاء / الكفرة / . وتجد فئة تتقصد أن تأخذ نساءها الحوامل إلى الغرب في شهر الولادة ليلدن هناك ويحصل المولود على جنسية بلاد أهل / الكفر / .

وما ذلك إلا لأنهم يشتمّون رائحة اللامستقبل واللاأمان في بلادهم التي يعيشون فيها ٠ هنا يأتي التعليم ومن مختلف منطلقاته ليؤدي دوره في رفع الحياة المعنوية لدى هؤلاء الطلبة والناس أجمعين . أن ينجح التعليم في تعزيز حالة الحب العامة للناس ، وأن ينظر الفرد إلى بلاده على أنها بيته الكبير ، ينظر إلى الناس من مختلف بقاع الأرض على أنهم أخوته ، وينظر إلى الحيوان والنبات وكل مخلوقات الطبيعة من حوله على أنها جاءت لتجعل في الأرض حالة من التوازن . ولانعني بالتعليم ذاك الذي يكون في المناهج الدراسية فحسب ، بل التعليم في مختلف مجالات الحياة لأن الناس جميعا وبمختلف مستوياتهم هم في النهاية طلاب علم . فيكون دور التعليم العام في المدارس والمساجد والمصانع هو تعزيز قوة الحياة لدى الناس أكثر من تعزيز قوة الموت حتى يكون بإمكانهم أن يقبلوا على الحياة والكفاح فيها أكثر مما يقبلوا على الموت والتهلكة . ٠ فالشخص يدخل المسجد ، ثم يدخل قاعة المسرح ، ويقرأ كتابا في الإسلام ، ثم يقرأ رواية ، والبلاد تتمتع بمختلف التيارات ومختلف اللغات والأديان والقوميات ، وهذا بذاته يُكسب المجتمع قوة هائلة ومتماسكة ، ولعلنا نرى حالات من الأمن تستقر في بعض هذه الدول الإسلامية / الوسطية / أكثر منها في الدول الإسلامية التي تميل في بعض مذاهبها شطر الغلو . هذا التعليم الذي عليه أن يعتمد على نصوص القرآن والسنة أكثر مما يعتمد على وصايا وتفاسير الفقهاء والمشائخ ، أن يتم

الاعتماد على النص كما هو بدون إلصاق التفاسير المتشابكة به ، ففي هذه المناهج ترى نصا في سطرين ويليه تفسير في صفحتين في هذه البلاد ، ثم ثلاث صفحات متناقضة مع ذاك التفسير في بلاد أخرى . تقول عائشة : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت ، وتضيف : كأني أنظر إلى وَبيض الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويوصي الإمام أحمد : لاتقلدني وتقلد سفيان ومالك وإنما خذ من حيث أخذوا . وفي رواية فقيهَي الصحابة ، عبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت : / ثلاث لايُغلّ عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين / .

مراجع

١ – سورة المائدة – الآية ١٠٥

٢ – رواه أبو داود والترمذي

٣ – الحافظ السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج٢/١٢٨/

٤ – البرهان في علوم القرآن ج٢ /١٦٤ / .

٥ – يمكن الرجوع إلى بحث أسباب الاختلاف في التفسير في مقدمة أصول التفسير لابن تيمية

٦ – أخرجه سعيد بن منصور

٧ – سورة العنكبوت – الآية ٤١

المسلمون وثقافة الموت

باتت ثقافة الموت سعيا إلى الجنة منتشرة في غالبية قنوات المعرفة في زماننا . ولاتكاد ترى شعاعا للأمل في كل هذه النداءات ، موت .. موت .. موت . الناس كلهم أموات سواء كانوا في قبورهم أم في قبر الحياة الكبير ، ومَنْ يموت في سبيل الله ذلك هو الحي الوحيد الذي لايقربه موت . تأتي هذه النداءات لتسد كل باب من أبواب الحياة والطموح والكفاح في وجوه الناس ولاتجعل من الحياة إلا وسيلة إلى الآخرة . وكأن الله قد خلق الإنسان وخلق النعيم لينظر الإنسان إلى النعمة ولايقربها ، أن يعيش وهو ميت ، أن يمشي في الحياة ويكون الموت مسيطرا على حواسه . وفي واقع الأمر فإن الفقيه الذي يعزز ثقافة الموت في الناس هو أكثر الناس حرصا على حياته الشخصية وتمسكا بها ، ويمكن له أن يضحي بأي شيء ويلحق الأذى بشعب كامل من المسلمين في سبيل أن يبقى حيا ولو عاش على شفا حفرة ، وهو بذات الوقت يستمد حياته من دفع فئة إلى الموت ، ففي الوقت الذي يدعوهم فيه إلى الموت يكون هو في ذروة الحياة ، ويجند هؤلاء ليحرسوا له حياته ولو كان على قناعة تامة لا تتزحزح بأن هؤلاء حقا يقفزون إلى الجنة بعد لحظات من عملياتهم ، لما تردد هذا الفقيه وهلة من أن ينتزع منهم هذه الجنة لنفسه ويكون هو القافز الأول ٠ لقد اضطر المسلمون في بعض مراحل الدعوة إلى القتال ، ولكنه كان قتالا مشروطا ، وأولى هذه الشروط أن هذا المسلم كان يتواجه مع مقاتل في ساح معركة وجها لوجه ٠ لم يسبق لمسلم أن غرز سيفه

في جوف امرأة ، أو طفل رضيع ، أو شيخ طاعن في السن ، أو ضيف ، أو مقيم في ديار المسلمين ، لم يسبق له أن قطع زرعا ، أو هدم مصنعا ، أو أحرق مسكنا على أهليه ، أو أهدم كنيسة بالمصلين ٠ ودوما هي محاولات لأن نتعلم دون استحياء من الآخرين .. نتعلم من تجاربهم ووقائع حياتهم وتعاملهم مع أديانهم ، فأعداد الكنائس والمعابد في العالم ربما تزيد عن أعداد المساجد ، ومرتادو تلك الأماكن الدينية هم أكثر من مرتادي المساجد ، وعدد غير المسلمين في العالم يفوق أعداد المسلمين ، بيد أننا لانجد هذا الكم الهائل من المجلات والكتب والمفسرين والبرامج الدينية والدعاة وثورة التكفير والتفاسير والفتيا التي يعيشها المسلمون يوما بيوم وساعة بساعة رغم أن أديانهم أقدم ، وشائع بين الناس بأن الإسلام يستجر هؤلاء من أديانهم إلى ملته ، ولكن لاتجد شخصا من أبناء هذه الأديان يأتي فيفجر مسجدا لأنه يشكل خطرا على كنيسته ، أو يعتدي على داعية لأنه يستجر الناس إلى ملة الإسلام حتى لو كان هذا الداعية في عقر دور هؤلاء ويبني مساجد الإسلام في بلادهم ، وما ذلك إلا لأنهم يتجنبون من إعطاء انطباعات سلبية تمت إلى العنف لأديانهم التي يدينون بها . وما ذلك إلا لأنهم لايؤمنون بفكرة : / اقتل مسلما وادخل الجنة / . عندما يمتلئ الإنسان بالحياة ، مهما كان انتماء هذا الإنسان فإنه يكتسب من هذا الامتلاء الحرص على حياته أولا ، ومن ثم على حياة الآخرين الذين هم شركاء له في الحياة ، ولكنه إذا فقد هذا الحرص على حياته يكون من العسير عليه أن يحرص على حياة مادونه . ترى فئة من الفقهاء تسعى إلى انتزاع روح السلم من الإسلام ، الإسلام الذي يأمر مسلميه بأن أول لفظ يلفظونه عندما يلتقون : / السلام عليكم ورحمة الله

وبركاته / فالآن : / الحرب عليكم وغضب الله وعقابه / وهذا القول يقوله المسلمون للمسلمين أكثر مما يقولونه لغير المسلمين ٠ يقوله فقهاء حتى لفقهاء لايشاطرونهم هذه النزعة لقد انتهوا إلى إقفال كل أبواب الحوار والكلمة الطيبة والتجادل بالتي هي أحسن ٠ لم تعد ترى شعاع محبة في كل تلك الخطب والأشرطة والصفحات والبرامج ، وحتى في مواقع الأنترنيت ، كل شيء موجه بعناية لتعزيز حالة العنف ، ولجعل الحياة فارغة لاتستحق إلا أن تكون وسيلة للآخرة ٠ هنا تأتي صفحات القرآن المشرقة التي تمثل الإسلام وتحمل رسالة الإسلام السلمية الدائمة في الناس فيخاطب رب العزة والجلال رأس المسلمين : / وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد في الأرض إن الله لايحب المفسدين / ١ ٠ / ٠ ويقول: / وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها / ٢ ٠ / وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون /٣ ٠ ويبيِّن نعمه على الناس لينظروا فيها ويحمدوه عليها ولايتجاهلوهاأ ويغضوا الطرف عنها قائلا : / وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها / ٤ ٠ ويوجه الناس ليستمتعوا بالنعمة ويعيشوا الحياة بطولها وعرضها :/ كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين / ٥ ٠

والحقيقة فإننا إذا نظرنا إلى سيرة النبي فنجدها كانت سعيا مستمرا في سبيل الحفاظ على حياته من أجل أن يكتشف الحياة ويعمل فيها وينشر فيها رسالته ، لأن كل يوم هو بمثابة إشراق جديد في نشر رسالة الإسلام ، فالهجرة هي

بذاتها كانت هجرة للتجنب عن الموت الذي يترصده في مكة ، للانفتاح على حياة جديدة ناشدها في المدينة .

لقد كانت الهجرة بحثا عن الحياة التي لن يستطيع أن يفعل شيئا بالنسبة لنشر رسالة الإسلام دونها ، ولذلك كانت القوة مرتبطة بوجود الحياة ، وكان الحزن يقع عليه عندما يفقد المقربين الذين كانوا يقفون إلى جانبه ويساندونه في مسيرة حياته ، فعندما ماتت خديجة ، شريكة الحياة ، وعندما مات أبو طالب العم المساند له لم يسم عام الموت هذا بعام / الفرح / بل أسماه / عام الحزن / . وحتى في مراحل الألم كان يلجأ إلى الله يسأله : / اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ . إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولاحول ولاقوة إلا بك / .

أما عندما تظهر بوادر الفقر في الناس فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يكون أول مَنْ يدعوا ربه ليدر على الناس بالخيرات قائلا : / اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضنك مالانشكو إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا البلاء مالايكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا / ٠ يقول شيخ الإسلام الثاني ابن القيم الجوزية – رحمه الله – في الهدي النبوي في أواخر الوفود (فصل في قدوم

وفد بني عبس) : وقدم عليه بنو عبس فقالوا : يارسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لاإسلام لمن لاهجرة له ، ولنا أموال ومواش وهي معاشنا ، فإن كان لاإسلام لمن لاهجرة له فلا خير في أموالنا ومواشينا بعناها وهاجرنا عن آخرنا ٠

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئا / ٠ ويقول : / إن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات / ٠ فالمسلم لايكون مسلما إذا كان إنسان آخرة فقط ، ولكنه يرتقي في درجات إسلامه كلما كان إنسان دنيا وإنسان آخرة معا ٠ فهو يعمل في دنياه أعمالا دنيوية كما لو أنه يخلد فيها ، ويعمل إلى جانب ذلك لآخرته كما لو أنه مفارق بعد لحظات ٠ وهو مفهوم كان ينادي به عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عندما رأى فئة من الناس فقدت كل علاقة لها بالحياة وأصبحت الآخرة هاجسا دائما تفسد عليها حياتها التي رزقها الله ٠

في إحدى الحوارات أراد نفر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتباهوا بأنماط عبادتهم فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال آخر : أنا لاأتزوج النساء ، وقال آخر : أنا أصوم ولا أفطر وأصلي ولا أنام ، فقال النبي : أما أنا فأصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني ٠

ثم لمّا قام أبو إسرائيل في الشمس أمره أن يستظل ٠

دوما كنت أنظر بألم إلى أولئك الذين ينقادون إلى قاعات المحاكم في العالم تحت أضواء كاميرات المصورين وهم يرفعون القرآن بأياديهم ، أولئك الذين تم

ضبطهم وهم يزرعون القنابل الفتاكة على السكك الحديدية ، أو في المسارح ، أو في المطاعم ، أو في الأسواق الآهلة بالناس . كنت دوما أقول : هل أن تلك الأيدي جديرة بأن تحمل ذاك الكتاب المبارك الذي لايمسه إلا المطهرون ، وأي مياه يمكن لها أن تطهّر تلك الأيدي الملوثة بدماء آلاف الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين .

مراجع

١ – سورة القصص – الآية ٧٧

٢ – سورة النحل – الآية ١٤

٣ – سورة يس – الآية ٣٣

٤ – سورة النمل – الآية ٦٠

٥ – سورة البقرة – الآية ٦٠

بين الدنيـا والآخرة

تكاد ثقافة الحياة الدنيا تكون شبه معدومة في أوساط المسلمين المعاصرين وإن كنا نجدها بأشكال وألوان مختلفة في تاريخ الفكر الإسلامي ، وفي النص القرآني ونصوص الأحاديث النبوية التي لاتقطع العلاقة بين الدنيا والآخرة ، والتي تقول بالدنيا وعمل الدنيا كما تقول بالآخرة وعمل الآخرة ٠يقول الله : / وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا / ١ ٠ ويقول : / وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض / ٢ ٠ وكذلك قوله جل وعلا : / ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا / ٣ ٠ ففي وقتنا أن تتحجب امرأة هذا يعني أنها تركت الدنيا ولجأت إلى الآخرة ، لقد كانت مستغرقة في آثام الدنيا الفانية ، وهداها الله إلى طريق الآخرة الخالدة على يدَي شيخ أو فقيه ٠ وهنا سوف تلتزم هذه المرأة المحجبة بيتها لأن مكان المرأة الملتزمة هو بيتها وخدمة أهل بيتها ويتحول بيتها إلى جامع مغلق وبيت طاعة وعبادة ٠ ستكون في عزلة تامة عن أي علاقة لها بنبض الحياة والعلاقات الاجتماعية والإنتاج الجاد ، لأن مارأته من آثام وآلام في عمق الحياة يكفيها ، وقد هداها الله سبيل الرشد ٠ فأن تخرج وتختلط بالناس ذلك يعني المزيد من الآثام والعودة مجددا إلى التعلق بالدنيا ومغرياتها ٠ فغمض العين عنها أفضل طريقة لتجنب تلك

الخطايا التي تكون عادة في ثناياها ٠ وإن كان لابد من القيام بعمل ما فعلى هذا العمل أن يكون موجها بعناية لتعزيز مكانتها في الآخرة ، حتى لوعملت في مجال الإعلام أو التربية فلاتنسى أن دورها يكمن في ترسيخ ثقافة الآخرة في أذهان مستمعيها أكثر من ترسيخ ثقافة الدنيا لأن الآخرة أولى وأبقى ٠ أما إذا قدمت عملا للدنيا فسيكون هذا العمل عاجلا ودون جهد وتركيز لأنه عمل آني لدنيا آنية فانية ٠ وهنا يمكن أن تكون عبئا على زوجها وولدها لأنها تكون فاقدة لكل رائحة من روائح الدنيا وتبقى عيناها فائضة الدمع بذكر الموت حتى وهي في فراش الزوجية ٠ فترى فئة من الأزواج تعترض على هذا اللون من العبادة والحجاب وتسعى كل مابوسعها لتجنب الزوجات هذا الحجاب الذي يفوح برائحة الموت ولاعلاقة له من قريب أو بعيد بالحياة ٠

وإذا أطلق شاب لحيته وحمل مسبحة في أنامله ، وارتدى جلبابا قصيرا ، ووضع في قمة رأسه قبعة بيضاء فذلك يعني أن هذا الشاب كان سالكا نهج الشيطان في الدنيا وهداه الله بفضل شيخ أو فقيه إلى صدق الحياة الآخرة ، فيبدو التغيير جليا على كل سلوكيات وتصرفات هذا الشاب ، كل مافيه يتجه نحو الآخرة ويودع الحياة الدنيا ، إنه يعيش الحياة ولكنه خارجها ولاعلاقة له بها ، وهو ليس ميتا بيد أن كل مافيه يفوح برائحة الموت ، حتى نبرات صوته ونظرات عينيه ٠ ويكون على استعداد لتنفيذ أي عمل من شأنه أن يودي به إلى الدار الآخرة المهيمنة على كل حواسه ومدركاته من جهة ، ويخلصة بأقصى سرعة من قيد الحياة الدنيا التي باتت تشكل عبئا عليه من جهة أخرى ، فلا هو حي في الحياة ينعم بنعيمها ، ولاهو ميت في الموت يلقى وجه ربه ، إن من شأن ذاك العمل الجبار أن يجعل شمس الآخرة تسطع على ظلماء نفسه

٠ على هذه القاعدة تتحرك ثورة النزوع إلى عمل ما من أجل الآخرة في داخله مادام قد فقد كل أمل وكل حلم له في الحياة ٠ لقد انتهت كل مصالحه مع الدنيا الفانية ولم يعد له أي دافع في أن يبقى يوما آخر في الحياة ويغدوا باحثا عن أي وسيلة أو إشارة تنمّي وتحقق له هذه الرغبة في الموت تخلصا من ثقل العيش ، وعندها فقط بمقدوره أن يقذف نفسه في النار سعيدا لأنه متجه إلى يدَي ربه ، متجه إلى الحياة الخالدة التي لا تنطفئ فيها شعلة الحياة أبدا ٠ وبانتظار أن تقع تلك اللحظات العظيمة المباركة كقطعة ثلج على روحه يمضي في الحياة مستهزئا بأولئك الذين يجدّون ويكافحون في سبيل عمار الحياة ، بأولئك الذين يستمتعون بكل لون من ألوان الدنيا ولايدعون وقتا دون أن يعيشوه بكل أبعاده ٠ ولايكتفي من مشاعر الاستهزاء هذه ، بل يمتلئ رغبة جامحة للانتقام منهم في محاولة منه هذه المرة لإعادة بعض التوازن إلى نفسه خشية أن تميل شيئا مع هؤلاء إلى شيء من نعيم الحياة ٠ إنه صراع حاد يواجهه وعليه أن يتغلب عليه في أقصى سرعة وعندذاك سوف ينقذ رفاقه أيضا الذين يدركهم ذات الشعور ٠ سوف يقدم على عمل ما بحق هؤلاء حتى لوكانوا أبناء دينه ولسانه وجلدته لأنهم يعيثون في الأرض فسادا ولايبغون في حياتهم الدار الآخرة ٠ ولعل هذا مايحدث لدى محاولات الإعتداء على مطاعم ، أو ملاه ، أو فنادق تقع وسط مدن آهلة بالسكان لاذنب لمرتاديها سوى أنهم يستمتعون بأوقاتهم ، يأكلون ويشربون ويمرحون ويتمتعون بما آتاهم الله من متاع الدنيا ٠ أو أنهم سياح الله يسافرون في أرضه الرحبة ٠ أو حتى بقصف مباني تحتوي على حشد هائل من الموظفين المدنيين وهم مستغرقون في تفاصيل أعمالهم المدنية لتسيير أمور المراجعين ٠ فهؤلاء لاذنب لهم سوى

أنهم يعملون كما أن راكب الطائرة لاذنب له سوى أنه ركب طائرة فيرى جسده وقد تحول إلى أشلاء لأن شخصا ما في هذا العالم قرر أن يريحه من عبء الحياة الدنيا ، ويرى آلاف الأطفال أنفسهم وقد تحولوا إلى يتامى ، آلاف النسوة إلى أرامل ، لأن شخصا ما في هذا العالم أراد أن يكون شهيدا ويدخل الجنة ٠ ولعل ما ينمّي هذه الرغبة لدى هؤلاء هو أنهم إلى جانب فقهاء يجدون بعض أهل الإعلام يباركون لهم هذه النزعة التي تتفرع إلى ثلاثة فروع إلى أن تصب في مصبها النهائي ٠ الشرارة الأولى تكون من الفقيه الذي يُصدر فتوى إلهية بصفته ناطقا رسميا عن الله ، والخطوة الثانية تتكلل بتشجيع ومباركة الفئة الإعلامية التي توقد شعلة الحماس في النفوس الفتية التي ترتدي ثياب الآخرة وتقفز إليها بشجاعة المبشرين بالجنة ٠ وفي اللحظة التي تتناثر فيها أشلاء هؤلاء الناس جميعا وتهرع أفواج الإسعاف والإطفاء لانتشال الأشلاء من تحت الأنقاض ينتاب الفقيه والإعلامي فرح سادي وهما ينظران إلى الأشلاء البشرية المتناثرة ٠ ولا يخلو الأمر أن يحدث انشقاق فيما بين هؤلاء الفقهاء أنفسهم فترى فقيها ينشق عن فئته ويسحب فتواه بعد أن عملت في البلاد والعباد ما عملت وألحقت من الويلات ما ألحقت ٠ فهو إن كان ينطق عن الله عن حسن نية إلا أنه اكتشف مؤخرا بأن ذلك لم يكن صوت الله ، بل كان صوت الشيطان ٠ أما فئة الشبان وجثث الضحايا فإن الشيطان وحده يتحمل وزر ذلك ، والآن وبعد أن تبين الرشد من الغي فإن الله قد أمره أن يسحب فتواه وما ذلك إلا أنه يقوم بتنفيذ أمر الله الجديد الذي أتاه بالتراجع عن الخطأ الذي أصابه ٠ لقد دعا النبي إلى أن يبحث المسلم عن كل أسئلته في القرآن ، وفي بدء الدعوة نهى أن يكتبوا شيئا عنه غير الوحي خشية تداخل

حديثه بالوحي ٠ روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : / لاتكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه / ٠ وفي تقييد العلم للبغدادي أن أبا هريرة قال : / كتاب غير كتاب الله ، أتدرون ما ضل الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى / ٠ ولكنه صلى الله عليه وسلم أجاز لبعض الصحابة بكتابة أحاديثه الشريفة فيما بعد لأنه لم يكن ينطق غير الحق وهذه من خصوصياته كنبي ٠ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : / كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا ؟! فأمسكتُ عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ فإصبعه إلى فيه وقال : / اكتبْ فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقا / ٠ وفي طبقات ابن سعد ٤٩٤/٧ عن إسحاق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : / رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة ، فسألته عنها فقال : هذه الصادقةُ ، فيها ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيني وبينه فيها أحد / ٠ لم يُرسل النبي إلى الفقهاء حتى يوصلوه إلى الناس ، لقد نزل على فئات العالم أجمعين ٠ يقول عليه أطيب الصلاة والسلام : / إني بُعثت إلى أمة أميين ، منهم الغلام والخادم والشيخ العاسِي والعجوز / ٠

ليس من سبيل إلى الحياة سوى سبيل الحياة ذاتها ، وفقط عندما يستيقظ المرء على ثقافة الحياة ، وتشرق في حناياه شمس الحياة سوف يدافع بشراسة عن

حقه وحق الآخرين للظفر بمتاع الحياة ، وسوف يقبل على العيش الكريم بقوة ويحيا كل تفاصيل الحياة التي انفتح عليها بقوة ويكون مستوعبا لقول ربه الذي يأمر بالعدل والإحسان : / وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه / ٤ ٠ وكذلك لتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم : / كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته / ٠

يحتاج الإنسان ليكافح في سبيل الحياة قدر حاجته الكفاح في سبيل الآخرة ، ودوما ليست ثمة آخرة تحل دون حياة ، ليست ثمة آخرة تأتي دون حياة ، ذلك أن الموت لايقع من الموت عادة ، بل يقع من الحياة على كائن حي مستغرق في تفاصيل الحياة ، والإنسان لايموت إلا إذا كان حيا يُرزق ٠ وإذا كان الإنسان يرغب بآخرة سعيدة لايكون له ذلك إلا إذا نجح في أن يجعل من حياته الدنيا حياة سعيدة أيضا ، ولايستطيع أن يقطف زهور الآخرة إلا إذا كان قد ملأ حياته بزهور الدنيا ، وهو بذلك يكون بمقدوره أن يقطف زهور الآخرة على قدر ماترك في الدنيا الزهور والرياحين الطيبة ٠

لقد خلق الله الدنيا ليعيشها الإنسان بكل مافي جسده من ذرات حياة ، وليس ليمضي فيها ميتا ، أ و يسير في مناكبها أعمى وهو بصير ، وإذا كان الإنسان يؤمن حقا بالآخرة ، فإن هذه الآخرة لن تولد إلا من رحم حياته التي يعيش فيها ، وإذا كانت هذه الحياة هي التي تؤدي إلى الآخرة أفلا تستحق أن يُحسن إليها ويبني عمارتها ويترك فيها بصمات إبداعه الإنساني ٠ لقد خلق الله الدنيا وخلق فيها إنسانها حتى يسعى هذا الإنسان إلى بناء حياته الدنيا والعمل الدؤوب فيها في سبيل بلوغ وسائل الراحة والرفاه ، ويحيلها إلى جنة ٠ وهو كلما نجح في أن يحيل حياته الدنيا إلى جنة حقق رسالته

الإنسانية وكان جديرا بالحياة التي عاشها وبالتالي كان جديرا بقطف زهور جنة الآخرة كذلك بمجد وضياء وكرامة ٠

فأن تكافح طوال حياتك لتحيي نفسا واحدة ستكون كمن أحيا الناس جميعا ، وأن تقتل نفسا واحدة – حتى لو كانت نفسك – ستكون كالذي قتل الناس جميعا ٠ لايحتاج الإنسان أن يعيش بانتظار أن يموت بمرض العمى الدنيوي ، ولكنه يحتاج إلى أن يعيش وكل حواسه مستيقظة لاستقبال كل ذرة من ذرات الحياة التي هو فيها فعليا ٠ وعندما يعيش الإنسان وهو يعيش يقظة الحياة ويعيش الآخرون لن يجد أحدا يتدخل في شؤونه الخاصة أو العامة مهما كان شكلها ٠ لقد عاش مسلمو الغرب ذروة مراحل الانفتاح الإسلامي والعقائدي في بلاد أهل الغرب بأمان وسلام وعيش كريم وعزة نفس ، ولم يمنعهم أحد من بناء مساجد ونشر وترجمة القرآن والترويج للدعوة بكل وسائلها السلمية وفي مختلف وسائل الإعلام ، وكانوا يقولون : نحن ندعو إلى عدم السرقة ، وعدم القتل وإلى التسامح ويتلون عليهم : / وإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم / ٠ نحن ننشر ثقافة السلم في العالم ولانجادل أهل الديانات الأخرى إلا بالتي هي أحسن ٠ ولكن عندما حل التطرف وتزيا بزي المسلمين وعلى الأغلب في العقد الأخير كان ذلك من شأنه أن يجعل هذا الغرب ليعيد النظر في هذه الحرية التي وهبها للمسلمين في تلك الديار وهم يسيئون فهم الحرية ويلحقون الويلات بالبلاد والعباد ٠ فجاء حظر الحجاب في الأماكن الرسمية كخطوة أولى للحد من هذه الحرية ، وليس الحجاب من أجل الحجاب لكونه ذات الحجاب السابق ، ولكن الحجاب الذي يشكل التهديد والخطر على الحياة العامة ، وهذا كذلك وإن انتشر في بعض بلاد الغرب ، انتشر كذلك في بعض

بلاد المسلمين أنفسهم عندما رأت أن ذلك يمكن أن يحمل تطرفا أو يسعى إلى نشر تطرف ٠ ولنفرض أن الآية انقلبت وتحولت فئة من الراهبات بزيهن إلى تطرف في دول إسلامية وغير إسلامية ، بل حتى في الفاتيكان ، ألا يكون لهذه الدولة أن تنظر بعد ذلك إلى أزياء الراهبات بشيء من الريب وهي ترى أن كل راهبة تتحول إلى قنبلة موقوتة في مطار أو مطعم أو فندق أو مؤسسة ٠

ماهو مثير في هذه القضية أنك لاتكاد ترى غير فئتين اثنتين في هذه الثنائية العجيبة ، فئة تجعل من القرآن كتاب آخرة فحسب ، وفئة تجعل منه كتاب دنيا فحسب ٠ تأتي الفئة الأولى لتجرد من أي علاقة له بالدنيا ، فهو قد جاء من أجل أن يخرج الناس من ظلمات الدنيا إلى نور الآخرة ، ومن ضيق الدنيا إلى رحاب الآخرة وهذه هي مهمته ٠ كل كلمة وكل حرف فيه ينادي الناس لينسوا الحياة الدنياالفانية ويلتفتوا إلى الآخرة الخالدة: / مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات / ٥ ٠ وتأتي الفئة الثانية لتتغنى بجمالية اللغة والصورة والبلاغة في هذه الآيات ٠ إن علوم الدنيا موجودة بين دفتي هذا الكتاب ، إنه كتاب دنيا بامتياز ، ويمكن للمرء أن يعيش حياة هنيئة وفق هذه التعاليم إذا نظر إليها نظرات دنيوية متوازية مع نظرات أخروية ، ولكنها ستنقلب عليه ضررا إذا نظر إليها طرفة عين نظرة آخرة فحسب ٠ يمكن لهذا الإنسان أن يحقق معجزات علمية وفلكية ولغوية هائلة إذا سخر هذه العلوم للدنيا ، إن الإنسان ليجد سعادة الدنيا كامنة في ثنايا هذا الكتاب ، وليس بوسع أرق نغم في الكون أن يجعل النفس ترفرف من

النشوة أمام صوت مقرئ عذب وهو يشدو بعذوبة هذه البلاغة اللغوية العظيمة ٠ دوما تأتي تعاليم الإسلام لتجعل الإنسان واقفا في الوسط من الأمور ، فيمكن لك أن تأخذ من القرآن ماهو للدنيا وتنفع به أهل الدنيا إلى جانب أنك تأخذ منه للآخرة فتخفف عن نفسك ثقل المادية الدنيوية ٠ يمكن للإنسان أن يقف في المواقع الوسطى من الأمور ليكون بإمكانه أن ينسجم مع الليل كما ينسجم مع النهار ، ويعيش ذروة الحرارة ، كما يعيش ذروة الصقيع ٠ وينظر إلى زهور الربيع العامرة على أشجارها كما أنه كذلك ينظر إلى أوراق الخريف وهي تتساقط ٠ دوما يمكن أن تسأل نفسك أو تسأل الآخرين : ألا أكون على خطأ وأنا أمضي كل حياتي في الصلاة ٠ ثم : ألا أكون على خطا أيضا وأنا أمضي كل حياتي في مقهى ٠

مراجع

١ – سورة البقرة – الآية ١٤٣

٢ – سورة الأنعام – الآية ١٦٥

٣ – سورة الإسراء – الآية ٧٠

٤ – سورة الجاثية – الآية ١٣

٥ – سورة محمد – الآية ١٥

فقــه الحيــاة

تأتي نداءات الدين للناس كافة لترسخ في نفوسهم ثقافة الحرص على الحياة ، فإن حرص الفرد على حياته وتمسك بها وأحبها ، سيولد لديه حرص على حياة الآخر . ولاتتوقف هذه النداءات عند النداءات فقط بل تتجاوزها إلى تحريم الأذى إلى النفس أو إلى الآخر أو إلى أشكال الحياة الأخرى مهما كانت درجة الأذى ، فلايجوز لك أن توجه شتيمة إلى نفسك أو إلى الآخر أو إلى الحياة ٠ يقول النبي : / لاتسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله / ٠ إن الله يسكن في الناس ويسكن في كل أشكال الحياة ولذلك فإن الإنسان الذي يبحث عن الله ، يبحث عنه في نفسه وفي الآخرين وفي الطبيعة ٠ وحتى في ذروة المظالم والقسوة فلا يبيح لك الدين أن تنهي حياتك بيدك ، أو تنهي حياتك وحياة الآخرين بيدك وقد بلغت عليك المظالم ذروتها ٠ فترى الشرع ينهى ذاك اليائس في دائه إلى أن ينهي حياته بيده تخلصا من الآلام ، وينهى الآخر من أن يحقنه كما يُشاع / حقنة الموت / ٠ والواقع فإن القتل للذات أو للآخر يخلو من أي شكل من أشكال الرحمة ٠ هنا ينير الدين القلوب والنفوس ليزيل عنها اليأس والقنوط وينهى الناس من أن يقنطوا من رحمة الله وينظروا بأنهم رحماء بأنفسهم أكثر من رحمة الله بهم ، ولو وجد الله رحمة في الموت للرجل اليائس لأحل عليه الموت لأن الله أرحم الراحمين ، ولكنه يجد الرحمة في الإنسان اليائس في الحياة ذاتها لأنه يعلم الغيب الذي لايعلمه هذا الإنسان اليائس ٠ واعلم أن الله لم يخلق كربا إلا وجعل له فرجا، وتكمن شعبة من

شعب الإيمان في أن يسعى الإنسان ليكتشف الأدوية الروحية والمادية للأمراض الجديدة التي تُكتشف فيه عبر مسيرته مع الزمن ٠ فإن حب الحياة من شأنه أن يحصّن ضد كل ألوان اليأس ، كما أن بغض الحياة من شأنه أن يغلق كل نوافذ الشمس على المرء ليقعد في قبو مظلم ٠ فرجل بلغ به اليأس مبلغا دفعه إلى نهر ليغرق فيه ، وبغتة وقع نظره على شخص يغرق في ذاك النهر ، هل سيخطر له أن ينقذه من ذاك الغرق أم يرمي نفسه إليه قائلا : هاأنذا ألتحق بك ياصديقي ٠ ورجل سعيد يمضي يوم عطلته الأسبوعية مع عائلته في نزهة بين خضرة وماء ، وبغتة رأى طفلا يغرق في النهر ، هل سينظر إليه وكأن شيئا لم يكن أم أنه سيهرع لإنقاذه من الغرق ٠ والطبيب الماهر كلما كان ممتلئا بالحياة فإنه بقوة حبه للحياة سيبذ ل مابوسعه لإنقاذ حياة مرضاه ٠ هنا سأقف أمام بعض التجارب الشخصية لكبار الكتاب في العالم الذين كانت لهم تجارب مختلفة مع الحياة والموت وكتبوا بصدق وعمق سواء عن تعلقهم بالحياة أو عن رغبتهم في التخلص منها . يقول فرانز كافكا في مذكراته : / إن خير ماكتبته له دوافعه في قابليتي لأن أستطيع الموت مسرورا وفي جميع هذه المقاطع الجيدة المتسمة بالإقناع القوي ، كان المقصود على الدوام شخصا يموت ويجد أن الموت صعب ، وأنه ظلم ، أو على الأقل نوع من القسوة يقع عليه مما يجعل ذلك في رأيي على الأقل يؤثر في القارئ ٠ أما بالنسبة لي ، أنا الذي أعتقد أني سأكون مسرورا على سرير الموت ، فإن مثل هذه الأوصاف لاتشكل أكثر من لعبة خطيرة حفيفة ، لهذا السبب أستغل بدقة انتباه القارئ المركز على الموت ، فأنا في حالة فكرية تفوقه صفاء وأحسب أنه سيشكو على سرير الموت ، أما أنا فشكواي ستكون

والحالة هذه أكمل شكوى ممكنة لأنها لن تنفجر في فجاءة الشكوى الواقعية ، بل ستتم في جو من الجمال والصفاء / ٠ فترى حضور الموت طاغيا في كل مؤلفات هذا الكاتب ، الموت الذي دائما يأتي حاملا الخلاص للأشخاص الذين بلغوا اليأس ولم تعد لديهم ذرة أمل في أن يعيشوا لحظة واحدة ، ولننظر إلى تصويره البارع في كتابة مشهد الانتحار لشخصية غريغوار سمسا الذي نهض ذات صباح وقد رأى نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة في رواية / المسخ / : / والآن ؟ ٠٠ سأل غريغوار نفسه وهو ينظر في الظلمة حوله وللحال اكتشف أنه لم يعد بإمكانه التحرك إطلاقا ٠ لم يفاجئه ذلك ، بل بدا من غير الطبيعي أنه كان قادرا حتى الآن فعلا على دفع نفسه على هذه السيقان الصغيرة الرفيعة ٠ وأحس من جهة ثانية بارتياح نسبي ٠ كان يشعر بالألم في كل أنحاء جسده ، لكن بدا له أنه يذوي ويذوي تدريجيا وسوف يذهب في النهاية كليا ، وظل في هذه الحال من التفكير الفارغ والأمن حتى وقعت ساعة البرج معلنة الثالثة صباحا وظل يرى أن كل شيء خارج النافذة كان قد بدا يزداد ضوءا ثم دون موافقته غطس رأسه على الأرض وتجدلت من منخريه آخر أنفاسه الضعيفة / ٠ وفي مثل هذه الأوضاع فإن كل يوم يمر لايقدم فيه المرء على الانتحار يشكل ألما بالغا في نفسه ، وكافكا نفسه يقول : / لقد عانيت طوال حياتي وأنا أتهرب من الانتحار / ١ ٠ في حين نرى كاتبا بحجم غابرييل غارسيا ماركيز – الحاصل على جائزة نوبل للآداب – يتعلق بالحياة كل التعلق ويحبها كل الحب ويعقد عليها كل آماله يقول حتى عندما يضطر لوضع موت شخصية فإنه يصرخ ويهرع من طاولة الكتابة ، وعندما تراه زوجته / مرسيدس / شاحبا هارعا من الكتابة وتسأله عن السبب ، يجيب بذعر : /

لقد قتلت الكولونيل / يقول ماركيز الممتلئ بحب الحياة : / إنني أرفض أن أقدم أبطالي وأدعهم يتطورون كي يموتوا فقط ، إنني لاأقدمهم من أجل هذا الغرض ، إنهم يتطوروا كي يعيشوا ، لكن يظهر الموت المقيت ويفسد كل شيء ٠ لأحد يموت سعيدا حتى أن معظم الناس لايموتون وقد استبد بهم الخوف ، بل إنهم يموتون بالأحرى وقد استبد بهم الغضب والاستياء واستاءوا أشد الاستياء لكونهم يجب أن يموتوا ٠ وقد تبينت لي دائما الحقيقة التالية : عندما يموت إنسان عزيز فإن الشعور الرئيس الذي يحس به أهل المتوفى هو شعور الغضب والاستياء إذ أن موت إنسان هو خسارة لايمكن تعويضها إطلاقا / ٠ ويضيف ماركيز واصفا تعلقه الشديد بالحياة : / إن الحياة هي أفضل ماوجد على الإطلاق ، إن الموت بالنسبة لي هو النهاية ، إنه أكبر مصيدة على الإطلاق / ٠ وكذلك نرى هذا الحب الجارف لدى ألبير كامو الذي بقوة حبه لحياته دافع عن حق الآخرين في الحياة وقد أدان الإعدام قائلا : / عندما يبارك الأسقف حكم الإعدام ، يكون في رأيي قد خرج عن دينه وعن معتقده / و اصطدم مع سلطات بلاده عندما أدانها في احتلال الجزائر ٠ كامو الذي أحب الحياة بعمق وكتب يصف حبه الجارف لها بعمق ٠ يصف كامو حبه للحياة : / الموت بالنسبة لي باب مغلق ، إنه مغامرة فظيعة ، كل مايقترح عليّ يسعى إلى أن يخفف عن الإنسان وطأة حياته وأمام الطيران الثقيل للطيور الكبيرة ، إن فيّ من الشباب ما لايمكنني معه أن أتكلم عن الموت ، لكن يخيل إلي أنه إذا كان عليّ أن أفعل ذلك ، فإنما هنا سأجد الكلمة المضبوطة التي تعبر بين الهول والصمت عن اليقين الواعي لموت بلاأمل ٠ لابد أن هذا هو الشباب ، هذا الاختلاء القاسي مع الموت ، هذا

الخوف الجسماني للحيوان الذي يحب الشمس : / ٠
ليس بوسع المرء أن يحرص على حياة الآخرين قبل أن يكون حريصا قبل ذلك على حياته ، والذي يمقت الحياة ويرنو نحو الموت يدعو الآخرين أيضا إلى هذا الموت ٠ يشرح هاينرش فون كلايست سبب كراهيته للحياة وحبه للموت قائلا في رسالة إلى أخته أولريكه بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٨٠٣ : / عزيزتي ٠٠ إن ما سأكتبه إليك قد يكلفك حياتك ، ولكني لابد ٠٠ لابد ٠٠ لابد أن أكتبه إليك ٠ لقد تناولت في باريس عملي على قدر ماتم فيه ، وراجعته ورفضته ، ثم مزقته ٠ والآن انتهى كل شيء ٠ إن السماء تحرمني من الشهرة ، من أعظم نعمة في الدنيا ٠ ولهذا فإنني ألقي إليها كالطفل العنيد بكل النعم الأخرى ، ولهذا فإنني ألقي بنفسي إليه ، هو الموت الجميل على أرض المعارك ٠ إنني أبتهج بالتفكير في القبر ذي العظمة اللانهائية / ٠ مع هاينرش ندخل إلى تفاصيل عالم شخص بالغ العبقرية مجبل بالحساسية والتوتر والآلام الكبرى ، إنه لايرى مخرجا من كل تلك الاضطرابات إلا بالموت وهو يكتب عن الأوتار الأكثر حساسية في هذا الأمر ، أعني جوهر العلاقة بين الإنسان والحياة ٠ كلايست وهو يحاول أن يقدم مفهومه هذا يقدم لنفسه قناعة كاملة عن جدوى هذا المفهوم ويدعو الآخرين أن يشاركوه هذا المفهوم حتى أنه في المناسبات السعيدة يقول للعروسين مثلا : أتمنى لكما موتا سعيدا ٠ وكتأكيد على انسجامه التام مع مفهومه يتوسل كلايست بإلحاح إلى (كارولين فون شيلر) لتقبل أن تكون شريكته في الانتحار بيد أنها ترفض هذا العرض ، وترفض متعة تلقي رصاصة الموت كما يقول لها ، ولاتتردد من أن تنفصل عن صداقته لأنها مولعة بحب الحياة ٠ ويلجأ كلايست إلى صديقه (روهلة)

قائلا : / هناك فكرة لاتفارق ذهني ، وهي أنه لنا أن نقوم مرة أخرى بعمل مشترك فهلم ، ولنقم بعمل حسن ونموت معه ، نموت إحدى ميتاتنا التي تُعد بالملايين التي متناها ، والتي سنموتها بعد ، وأن الأمر ليشبه خروجنا من غرفة ودخولنا في أخرى / ٠ ولكن روهلة أيضا يرفض ذلك ويبتعد عنه لأنه شديد التعلق بالحياة ٠ يكتب كلايست في رسالة إلى إحدى الصديقات العزيزات لديه :/ فلتهب لك السماء موتا فيه شطر من البهجة والمرح اللذين لايوصفان ، واللذان يوجدان في موتي ، وهذه هي أكثر الأماني التي أستطيع أن أتمناها لك حرارة وعمقا / ٠ ويصف كلايست لحظات موته قائلا :

الآن أيهذا الخلود أصبحت لي كلك
فأنت تنفذ بشعاعك من خلال العصابة على عيني
مرسلا بهاء الشمس المتضاعفة آلاف الأضعاف
لقد نبت لي جناحان على كاهلي
وهاهي ذي روحي تحلق في مجالات الأثير الساكن
وهي ترى مدينة الميناء اللآهية تغوص
كسفينة تخطفها نسائم الريح
وكذلك تتوارى عني كل حياة
غائبة في الغسق
أما الآن فمازلت أميّز الألوان والأشكال
والآن أخلّف كل ضباب تحتي ٠

إن مايدفع كلايست إلى الموت هو هذا الألم الذي يستوطن روحه فيشعر بأنه فقد كل شيء بشكل مطلق ، ولم تعد الحياة تحمل إليه غير المأساة ٠ إنه يناشد الخلاص في الموت ، ولأنه لايريد الاستسلام إليه مرغما أو مهزوما كما ينهزم الجنود في الحروب الخاسرة أو يستسلمون ، فإنه يقوم بالاستعدادات للرحيل الأخير ويريد أن يصطحب معه مَنْ يحب ٠ وإذا نظرنا في راسائله سنعثر على حجم الألم الهائل الذي يعيشه لحظة بلحظة ٠ يقول : / لقد أصاب الجرح روحي حتى لأكاد أقول أنني حين أخرج أنفي من النافذة يؤلمني ضوء النهار الذي يلتمع في وجهي / ٠ ولكنه في النهاية يرى المرأة التي أصاب الجرح روحها كذلك فتقبل أن تشاركه الانتحار وهي امرأة أصيبت بداء السرطان ويئست من الشفاء ، فيتخيل كلايست لحظة إطلاق الرصاص عليها سيكون / ضريحها أحب من أسرّة كل الأمبراطورات في العالم / ٠ ثم يكتب رسالته الأخيرة إلى أخته : / إلى أولريكة فون كلايست

إلى صاحبة العصمة ، لايمكنني أن أموت قبل أن أتصالح راضيا تماما على نحو ما أنا الآن مع الدنيا كلها ، وبالتالي وقبل كل شيء آخر معك يا أولريكة يا أعز الناس عندي ٠ دعيني أرجع عن التعبير القاسي الذي ضمنته خطابي إلى آل كلايست ٠٠ لقد فعلتِ ، لاأقول أقصى مايمكن أن تفعله أخت ، بل أقول أقصى مايمكن أن يفعله إنسان لإنقاذي ٠ والواقع أنه لم تعد في الدنيا وسيلة لمساعدتي ، والآن أقول لك وداعا ولعل السماء تمنحك ميتة فيها نصف ما في ميتتي من الفرحة والبشاشة التي لاسبيل إلى التعبير عنها ٠ هذه هي أخلص وأحب أمنية استطيع أن أمناها لك / ٠

أخوك هاينرش
شتيمينجس – قرب بوتسدام
صباح يوم موتـي

ثم ينشد كلايست نشيد الموت الأخير في حياته وهو يخاطب هذه المرأة التي وضعت يدها بيده :

قفـي وانتصبي صامدة مثلما تنتصب القبة
لأن كلاّ ً يريد أن يهد لبِناتها
وقدمي هامتك كحجر البناء الأخير
إلى بروق الآلهة وناديها : فلتصيبي
ودعي النفس تتصدع حتى القدمين
مادامت نفحة من ملاط وحجر
متماسكة في هذا الصدر الفتـي ٠

في الواقع فإن اللجوء إلى الانتحار كوسيلة للخروج من الحياة هو قديم في التاريخ البشري فنقف أمام أسماء لامعة انتهت إلى الانتحار مثل شاؤول الملك – وشمشون – وأخبتوفل القائد ٠ أما أثينا فقد أدخل سقراط إليها الانتحار عندما جرع السم ، كما أن الوقائع المؤلمة دفعت بعض إهالي روما إلى

الانتحـار وأبـرزهم : / سـنيكا – وبـروتس – وكـاتون / ٠ وفـي أفريقيـا عُـرف الانتحار عن طريقـة قبيلـة / الويـو / التـي كانـت تجبـر المعتـدي علـى الشـرف علـى الانتحـار رغمـا عنـه ٠ أمـا فـي أمريكـا الوسطى فكان يقضـي موت الحاكم أن تنتحـر زوجاتـه وجواريـه ، وفـي أمريكـا الشـمالية كـان الخـدم ينتحـرون فـور موت سيدهم تعبيرا عن إخلاصـهم الشديد لـه وكانوا يُدفنون معه فـي ذات اليوم وذات المقبرة ٠ أمـا فـي الشـرق الأقصـى عُـرف الانتحـار فـي الهند حيث تثبت الأرملـة إخلاصـها لزوجهـا بالانتحـار فـي أثنـاء مراسـم دفنـه ٠ ولكـن جـاءت الأديان لتبين بأن الإنسان كائن حر وله استقلاليته وخصوصيته ، وقد حررت هذه الأديان من عبودية الإنسان مهما كان موقعه في المجتمع ومهما كان لونه ٠

ينتحـر الإنسـان عنـدا يبلـغ ذروة مرحلـة اليـأس مـن أن الحيـاة لـن تقدم لـه شـيئا يخفـف مـن معاناتـه ، عنـدها تنطفـئ آخـر قبسـة مـن قبسـات الأمـل فـي نفسـه فينتحر وكله أمل بأن هذا الانتحـار هو العمل المجدي الوحيد الذي يرفع عنه كل ذاك الألم الروحـي ، وربمـا كل تلك الاحراجات التـي يواجهها فـي المجتمـع وهـو حـي ٠ يقـدم هذا الإنسـان اليـائس علـى عملـه وهـو مـؤمن بـالله ، ولكنـه إيمـان سـلبي يـرى فيـه الله و قـد تخلـى عنـه فـي محنتـه ، فيكـون رده علـى هذا التخلـي بـأن يـرفض الحيـاة التـي وهبهـا لـه الله ويعيدها إليـه بطريقـة مزدريـة ٠ وعلـى النقيض منـه يمكـن أن نـرى إنسـانا حقق الله لـه أمنياتـه فـي الحيـاة ورزقـه بنعمـة المـال والجـاه والنسـل ، بيـد أن هذا الشـخص ينتابـه يـأس عميـق مـن أن الحياة بدت في نظره هشـة فارغـة لم تعد تحمل جديدا ، لقد أخذ كل شـيء من

الحياة ورأى كل شيء واكتشف كل شيء ٠ فيشعر أمام هذه النظرة بأن الحياة تخلو من المسرات والأسرار الكبرى التي تستحق أن ينتظر الإنسان ليكتشفها ، إنها في أرقى مراحل توهجها ليست أكثر من ربيع بارد من الضجر ٠ نحن أمام شخصين نقيضين ، أحدهما في ذروة الحرمان واليأس ، وثانيهما في ذروة البذخ والحيوية ، ولكن كلاهما يلتقيان أمام فكرة واحدة ويسلمان بها ٠ يأتي هذا إلى بعض الفئات من الناس لسبب عدم إمكانه معرفة الغيب ٠ وهاهنا يأتي الإسلام ليعالج هذه المعضلة الكبرى ليسلم المسلم بأمر ربه الذي يعلم الغيب ، فيغدو المسلم على معرفة حدسية بالغيب من خلال قوة معرفته بالله الذي يعلم كل الغيب ٠ فيأتي الشخص الأول فيقول في نفسه : مادمتُ أسأل الله أمرا منذ سنوات طويلة ، وهو يرى ألا يلبيه لي رغم إلحاحي الشديد فأنا إذن أمام أمرين ، أولهما : أنني مستعجل في أمري وأن تحقيقه في السنوات الماضية أو الآن يلحق بي الأذى ، وأنه سوف يأتي في وقته المناسب لأن المسرات الكبرى تأتي متأنية بعض الشيء حتى تكون مضيئة ومشرقة ٠ ومادام الله يمهلني ويمد في عمري لأنتظر ، فما بالي مستعجل على ألا أنتظر ٠ ثانيهما : أنه رغم قناعتي بأن تحقيق ماأسأله سوف يحقق لي المنفعة ويرفع عن كاهلي البؤس ، فإن الله الذي يعلم السر وما أخفى لا يستجب لي لأن استجابته يلحق بي الأذى فيستبدل سؤالي بتحقيق أمنيات بديلة يراها تنفعني ٠ وهو الذي يقول لي : / وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم / ٠ مثلي مثل فتاة تنفتح على حياتها فترى وجهها وقد امتلأ بالنمش فتلجأ إلى الأدوية وتسأل ربها أن يزيل عن وجهها هذا النمش فيدوم ذلك سنوات ٠ وبعد هذا تُصاب بداء خبيث فيبيّن الفحص الطبي أن ما

يمنع انتشار الوباء في سائر جسدها ويقضي عليها هو إصابتها لبضع سنوات في مرحلة المراهقة بنمش في وجهها وبعض جلدها مما جعل لديها مناعة فيما بعد وحدّ من انتشار هذا الداء في سائر البدن ٠ فتشفى هذه المرأة بفضل ثلاث سنوات من النمش ، وتشكر ربها الذي لم يستجب لدعائها السابق رغم إلحاحها الشديد عليه ٠

أما الشخص الثاني فيقول في نفسه : ما لي أشعر بأنني ضجرت من الحياة وأنا لم أر غير الجزء اليسير منها ٠ ألا أنظر إلى ربي الذي يملك كل شيء ويعلم الغيب ولاينتابه ضجر ، إذا كان الله الذي له كل ما في السموات والأرض والبحار وما فيها والذي هو حي قيوم لاتأخذه سنة ولانوم منذ ما لاأعلم من الدهور ، فما الذي لدي وما الذي أعلمه وما الذي رأيت وأنا لم أعش بضع سنوات كنت نائما في أغلبها ولا أملك ذرة مما يملك الله ٠ إن عمر البشرية منذ الجد الأول وحتى قيام الساعة لايكفي لأن يكتشف الإنسان كل شيء ويعلم كل شيء من أسرار الله ، وأظن حتى ذاك الإنسان الأخير على سطح الأرض سيقول في لحظاته الأخيرة : لوأمهلني الله بعضا من الوقت لعلمتُ شيئا جديدا ٠

هامش

١ – أنظر مقالنا المنشور في مجلة البحرين الثقافية / فكرة الموت في كتابات كافكا / العدد ٢٧ يناير ٢٠٠١ – مملكة البحرين ٠

النبـــي يهدم مسجدا

عندما شاء الله أن يخلق الإنسان تحاورت معه الملائكة بأنه يجعل مَنْ يفسد ويسفك الدماء / ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك / ولكن الله يجيب على الكلام المستقبلي الذي تقوله الملائكة عن الإنسان : / إني أعلم مالاتعلمون / فإذا سواه الله ونفخ فيه من روحه قعوا ساجدين .

ثم مرد إبليس خارجا عن طاعته ورافضا مشيئته ، وعندما اكتمل الإنسان الأول وغدت له خصوصيته الخلقية المستقلة أول مافعله هو أن عصى الله وخرج عن طاعته ، بيد أن الله وأمام تراجع هذا الإنسان عن الخطيئة عفا عنه ٠ ومرة أخرى عندما أنجب هذا الإنسان ولده الأول فإن هذا النسل الأول أول مافعله هو أن سفك دم أخيه الأول ٠ ولكن الله لبث يعفو عن الإنسان وغدا يوجهه نحو السلم والتكاثر والعفو ، فأنزل كلامه على عباده وكل هذا الكلام هو درس وعلم وتوجيه وتربية من الله للإنسان ، ولكن الإنسان مرة أخرى يقتل الأنبياء ويرفض الكتب الموجهة إليه ويستمر في المعصية والشر والطغيان ، وإلى جانب ذلك لبث الله يعفو عنه ويستمر في إرسال الأنبياء والرسل في سبيل أن يرتقي الإنسان إلى أن يكون سلما وعفوا وإشراقا ويكون جليس الله ويكون الكائن الأقرب إليه ٠ في حديث عن الحارث الأشعري عن النبي أنه قال : / إن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن

عنقه إلا يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم . فقال رجل : يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ . قال : وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله /١. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول : يارب أنا الصلاة . فيقول : إنك على خير . ثم تجيء الصدقة فتقول : يارب أنا الصدقة . فيقول : إنك على خير . ثم يجيء الصيام فيقول : يارب أنا الصيام . فيقول : إنك على خير . ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول : إنك على خير . ثم يجيء الإسلام فيقول : يارب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول : إنك على خير ، بك اليوم آخذ وبك أعطي / ٢. وقال الدرامي : أخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمر بن يحيى قال : سمعت أبي يحدّث أبيه قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال : أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟

قلنا : لا ، فجلس معنا حتى خرج ، فلما خرج قمنا إليه جميعا فقال له أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفا أمرا أنكرته ولم أرَ والحمد الله إلا خيرا ، قال : ما هو ؟ قال : إن عشت فستراه قال : رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة ، فيقول هللوا ما ئة فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة فيسبحون مائة ، قال : فماذا قلت لهم ؟ قلت : ماقلت لهم شيئا انتظار رأيك وانتظار أمرك ، قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع حسناتهم شيء ؟ ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك

الحلق فوقف عليهم فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح ، قال : فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لايضيع من حسناتكم شيء ، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم ، هؤلاء صاحبة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر ، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي ما أردنا إلا الخير قال وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن قوما يقرءون القرآن لاتجاوزتراقيهم ، وأيم الله لعل أكثرهم منكم ، ثم تولى عنهم . فقال عمرو بن سلمة : رأينا عامة أولئك الحِلق يطاعوننا يوم النهروان مع الخوارج . وفي الصحيح : / من فارق الجماعة شبرا فميتته جاهلية / .

لقد جاء الإسلام لينشر رسالة السلم في الناس ، وأي مكان يحقق للناس هذه الرسالة يكون بيتا من بيوت الله ، وأي مكان يفرق الناس ويدعوهم إلى التهلكة والعداوة والبغضاء يكون بيتا من بيوت الشيطان ٠ لقد ألف الله بين قلوب الناس برسالة لإسلام وجعلهم بنعمته إخوانا ٠

في كل الاتجاهات تأتي الأديان لتعزز حالة الإنسانية في الإنسان ، تجعله يشرق بنور إنسانيته على ذاته وعلى العالم ٠ والإسلام هو دين الإنسان منذ بدء الخليقة ، لكنه يأتي عبر رسل وأزمان وظروف وبأشكال ولغات مختلفة اختلاف الناس ٠ لقد كان الإنسان بحاجة إلى الإسلام فأنزله الله عليه خيرا وسلاما ورحمة ليس للمسلمين فحسب بل للعالم كافة ، ولكل مخلوق خلقه الله ، فيمكن لشخص ما أن يكف أذاه عن إنسان أو عن حيوان أو عن نبات من خلفية الإسلام ، ولايمكن لهذا الشخص أن يلحق الأذى بكائن إلا إذا خرج عن تعاليم الإسلام ، ففي اللحظة التي يعتدي فيها على حقوق الآخرين سيكون قد

ناقض تعاليم دينه حتى لوكان في بيت من بيوت العبادة ، وعندها سيفقد بيت الله هذا خصوصيته الإسلامية ، وينزع الله منه نوره لأنه ماعاد يؤدي مهمته في نفع الناس وما عاد بيتا من بيوت الله وقد انطفأ فيه نوره ٠ : / أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذى أوَان بلدٍ بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحابُ مسجد الضِّرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله ، إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال : (إني على جناح سفر ، وحال شغل) ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم (ولو قد قَدِمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه) ٠ فلما نزل بذى أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخشُم ، أخا بنى سالم بن عوف ، ومعن بن عدي ، أو أخاه عاصم بن عدي ، أخا بني العجلان ، فقال : (انطلقا إلى المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرِّقاه) فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سَعفا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه ، وفيه أهله ، فحرَّ قاه وهدَّ ماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن مانزل : ((والذين اتخذوا مسجدا ضِرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين))٣ ٠

لقد كثرت في زمننا المساجد التي تفرق المسلمين أكثر مما تجمعهم ، وتلحق الضرر بالمسلمين أكثر مما تنفعهم ، وكم من مسجد تعُقد فيه حلقات حزبية وسياسية ويلتقي فيها أولئك الذين يُلحقون الويلات بالمسلمين ٠ فهذا مسجد

شيخ هذه الطريقة ، وذاك مسجد شيخ تلك الطريقة ، ومن يدخل هذا المسجد يكون من مريدي شيخه ، ومن يدخل ذاك المسجد يكون من الموالين لشيخه ٠ والحقيقة فكما أن الناس يمكن لهم أن يتزيوا بزي الإسلام والإسلام منهم براء ، فيمكن لأبنية أيضا أن تتزيا بزي المساجد ونور الله منها براء ٠ورد في صحيح مسلم أن رسول الله قال: ((تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر فيها إلا قليلا)) ٤ ٠ ثمة حادثة وردت في (فتح الباري) وفيها أن أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق ، وهؤلاء يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام ، فخطا بعضهم بعضا ٠ وكان ممن رأى الخلاف حُذيفة بن اليمان – صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم – فسمع ناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأى أهل البصرة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرؤوا على أبي موسى الأشعري ، فغضب حُذيفة حين رأى ذلك واحمرت عيناه ، فقام في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : / هكذا كان مُنْ قبلكم اختلفوا ، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين / ٠ وجاء فزعا إلى المدينة ، ولم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال له : / يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى / ٠ وقد صادف ذلك أن اختلافا مثله وقع في المدينة بين متعلمي القرآن ومعلميه ، فتعاظم ذلك في نفسه فخطب الناس فقال : / أنتم عندي تختلفون وتُلحِنون فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافا وأشد لحنا ٠ ثم قال : اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماما ٠ فلما اجتمع

الصحابة عنده ذكرهم في أمر اختلاف الناس في القراءة ، وقال : فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد أن يكون كفرا ٠ فقالوا له : فما ترى ؟ قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف / ٥ ٠ وقد واجه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حشودا من هؤلاء الذين يتزيون بزي الإسلام ويبنون مساجدا في سبيل تحقيق هذه الفرقة في الناس يصف هذه الفرق بقوله : / أخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، وذينكم نفاق ، وماؤكم زعاق والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه ، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه ، كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها ٠ ويصف الذي يفتي لهؤلاء : قد سماه أشباه الناس عالما وليس به ، جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره ، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثّا من رأيه ، ثم قطع به ، فهو في لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت لايدري أصاب أم أخطأ ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب / ٦ .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وأنا اسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشرّ فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، فقلت : وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال : ((نعم وفيه دَخَن)) قلت : وما دَخَنُه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنّتي ويهتدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم فتنة عمياء ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها)) قلت : يا رسول الله

صفهم لنا قال : ((قوم من جلدتنا ويتكلمون بألستنا – قلت يا رسول الله ما تأمرني إن أدركت ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك)) .

مراجع

١ – رواه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن صحيح

٢ – رواه أحمد

٣ – هكذا رواه ابن اسحاق من غير اسناد ٠ وذكره ابن كثير في تفسيره (١٣٩/٤) والشوكاني في / فتح القدير / ٢م٥٦٨ من طريق ابن اسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم مرسلا ٠ سورة التوبة ، الآية ١٠٧

٤ – أخرجه مسلم في صحيحة : كتاب المساجد باب استحباب التكبير بالعصر رقم : ٦٢٢ . وأبو داود في سننه : كتاب الصلاة ، باب في وقت صلاة العصر رقم ٤١٣ ، والترمذي في سننه كتاب المواقيت ، باب ما جاء في تعجيل العصر رقم ١٦٠

٥ – تفسير الطبري ٢١/١ فتح الباري ١٥/٩

٦ – نهج البلاغة – ج١ ط٢ – دار الأندلس – بيروت ١٩٦٣

فقهاء الاستنارة

الحمد لله الذي بعث محمدا بالهدى ودين الحق على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم المناهج وأوضح السبل ، فشرع الشرائع وبيّن الأحكام ، ولم يقبضه إليه حتى تم شرعه وكمل ، فمن أراد الله سعادته واكتفى بهديه عن سائر الشرائع والنحل ، ومن قضى عليه بالشقاء صدف عن ذلك وعدل ، ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تنجي قائلها يوم العرض من كل كرب ووجل ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل الخلق وخاتم الرسل ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حازوا قصب سبق الفضائل بالعلم والعمل ٠

يمكن أن نقع في التراث التفسيري الإسلامي على مفسرين أجلاّء استطاعوا أن يقدموا شروحات هامة لبعض الآيات التي تحتمل أكثر من معنى في اللسان العربي ، فقاموا بجمع البراهين والأدلة والوقائع في عملهم التفسيري الكبير من كوثر التعاليم الإلهية الهدوية ، ومن هؤلاء الرجال ابن كثير * الذي يرتكز في تفسيره على نصوص القرآن بالدرجة الأولى فيفسر القرآن بالقرآن ، ثم يأتي

* هو الإمام الحافظ : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري ، الفقيه الشافعي والمحدث الثقة والمفسر الكبير ولد سنة ٧٠٠ هـ وتوفي في شعبان سنة ٧٧٤ ٠

بالحديث الشريف وأقوال الصحابة ، كما أنه يذكر أقوال الفقهاء في تفاسيرهم للآية التي هو بصدد تفسيرها ٠

ثمة فقهاء ترى في وجوههم نور السلم ، وربيع الأبرار وروضة الصلحاء والأخيار ، تشم من أحاديثهم عطر القرآن الكريم ، ترى فيهم مستقبل الإنسان المشرق وتدرك للتو أن هؤلاء هم ورثة الأنبياء ، وأن العالم لم يسيطر عليه الشر كاملا ٠ هؤلاء يسعون في الأرض ما أمكنهم لنشر ثقافة السلم والحياة والمحبة والتسامح في الناس ٠ / قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون/ ١ ٠ يستطيع المرء أن يصغي إليهم ويقرأ كتبهم كما يقرأ كتب الأنبياء والمخلصين والقديسين ٠ لقد أخذوا على عاتقهم مهمة العمل في قلع الأشواك من دواخل الإنسان وزرع الزهور بدلا عنها لأن الإنسان يمضي نحو الضوء أكثر مما يمضي نحو الظلام ، ويمضي نحو الزهور أكثر مما يمضي نحو الأشواك ٠ فتراهم يواجهون حروبا من فئة فقهاء الظلام المقابلة فقط لأنهم يسعون إلى النور ٠ وقد تسنى لي أن أرى فقيها مشهودا له بالنور يقول بأنه لقي أحد هؤلاء فلم يتردد من أن يكفّره ويُخرجه من الملة ٠ ولما سأل عن السبب ٠ قال له : لأنك لاتكفّر الذين يستقبلون الكفار ، ولاتدعو للجهاد ٠ فقال : لكننا نحتاج أن نبني علاقات مع شعوب الأرض قاطبة من أجل مصالحنا مادمنا نحافظ على ديننا ٠ وقد تسنى لي أن أرى شيئا في بعض وسائل الإعلام عن صراع الفقهاء مع الفقهاء

كأنه يقول : / صبّوا الكاز على فتاوى ابن باز / و / صبّوا البنزين على فتاوى ابن عثيمين / إلى آخر ذلك من أشكال وألوان الصراع ، ثم لايخلو الأمر من أن نرى الدعوة إلى كافة أشكال الظلامية ، فترى أحد هؤلاء يخرج للناس بقصاصة من ورق يقول بأن الله قد أمره في النوم أن يوزع هذه القصاصة في الناس وأن الذي يكتبها مائة مرة ويوزعها يكون له ثواب لاثواب بعده ، أما الذي يكذّب ذلك فيصيبه شر في الدنيا والآخرة ، ثم يروون أمثلة على مايقولون في سبيل الترويج لمثل هذه الظلامية في الناس ، وهي في غالبيتها تدعو للقطيعة عن الدنيا وأن الآخرة باتت على وشك الوقوع وما هي أيام أو سنوات قليلة حتى تقع وأن مانشهده لهو من علامات الآخرة ٠ ومن هنا تكون الدعوة إلى الجهاد قبل أن ينغلق باب التوبة ، والجهاد أن يلحق المرء نفسه فيحمل سيفا ويسيح دما قبل أن توافيه المنية ، ولكن عبر الزمن يأتي فقهاء النور ليقفوا إلى جانب الإنسان وإلى جانب مستقبله المشرق وإلى جانب العمل والعطاء والإبداع وأن / الجهاد الأكبر / الذي يصفه النبي هو جهاد أن تسعى لتعيش بخير وتنشر الخير والعفو والمودة ٠ يقول عبد الرحمن الكواكبي : / يا قوم أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي الكثيرين، وأُجِلُّكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون، فهذه أمم أستراليا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، دعونا نتدبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم الآخرة ، دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن فنحيا طلقاء أعزاء / ٠ في واقع الأمر أننا نعيش مرحلة بالغة الحرج

ولا أظن أن هناك تفرقة وقعت في المسلمين منذ أن أرسل الله نبيه وإلى يوم الناس هذا ، فالبلدان الإسلامية باتت مغزوة وتعاني مرارة الغزو بأعلى مستوياته ٠ نجد بلدانا مغزوة بثورة التطرف من الداخل ، وبلدانا مغزوة باستبداد حكامها ، وبلدانا مغزوة بقوة الاحتلال ، ولانجد بلدا إسلاميا إلا ويعاني شكلا من أشكال الغزو والتفرقة ، وأحيانا ترى أن فئة التطرف تتقصد أن تستدرج الاحتلال إلى بلاد المسلمين ، فمثلا تذهب فتقوم بعمل يلفت الأنظار ويلحق الضرر بقوة عظمى وتعود إلى بلادها فيتعقبها الغرب إلى تلك البلاد ، وعلينا دوما أن نعترف بأننا نحن الذين أتينا بكل أساطيل الغرب إلى بلداننا ، ولو أصررنا أن نكون أمة واحدة متعاضدة لما استطاعت أي قوة في العالم أن تمسنا بضر ٠ والحقيقة فإن الغرب من أي موقع كان لايشعر بأ ن الإسلام يشكل تهديدا عليه لأن الإسلام لايشكل تهديدا على قدر ما يحمل في جوهره رسالة السلم ٠ وهو لايطارد الإسلام ولايطارد القرآن على قدر ما يطارد أولئك الذين يلحقون الأضرار بأمواله وأرواح مواطنيه ، وهذا مايشاركه به المسلمون أيضا فإن البلدان الإسلامية كذلك لاتتردد من معاقبة أهل الغلو ، وهذه البلدان تلتقي مع قوة الغرب في التصدي لثورة التطرف ٠ من هنا يهم أئمة هذه الثورة أن ينشروا ظلامية صراع الأديان ، فيأتون بنظريات أن أمة الإسلام تتعرض إلى حملات تستهدف الدين كله وهذا من شأنه أن يشعل فتيل حرب أهلية كبرى في البلاد الإسلامية التي يعيش فيها أبناء أديان أخرى بأعداد هائلة ٠ إن مايهم هذه الفئة دوما هو أن تكون الحرب شاملة وعامة وعالمية ودينية حتى تأخذ كل أبعادها في النزوع العدواني بين المسلمين من جهة وبين العالم برمته من جهة أخرى ٠

ولكن دوما تبقى الآمال الكبرى معقودة على أئمة النور الذين يبددون هذه النزوعات وينجحون كذلك في تقديم القرآن إلى كبار الشخصيات السياسية والفكرية في العالم ، فنرى تلك الشخصيات الكبرى وبعد قراءتها للقرآن قراءات طهرانية وفردوسية تطلق ثناءات على الكتاب المجيد وتقول بأنه ليس إلا رسالة سلم للناس كافة ٠ / ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)٢ ٠ / ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل / ٣ ٠ ويقول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه : / لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة)، وفي رواية: (حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) ٠ روى الحاكم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : / إن هذا القرآن مأدبة الله في أرضه ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم / ٤ ٠ وروى ابن ماجة بإسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : / إن لله أهلين من الناس / ، قالوا : يارسول الله من هم ؟ قال : / أهل القرآن ، أهل الله وخاصته / ٥ ٠

تنتشي نفس قارئ القرآن وتقر عينه وتسكن جوارحه وهو يبرك إلى مائدة ربه : / والطور ، وكتاب مسطور، ورق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور / ٦ ٠

: / وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون / ٧ ٠ تتميز قراءة القرآن بأنها تمنح القارئ قراءات حرة مفتوحة الأفق وليس قراءة محكمة واحدة ، فيكون أمام مخيلته – وهو يقرأ كلام ربه – أن تحلق في عالم من التصورات والرؤى ٠

مراجـع

١ – سورة آل عمران – الآيـة ٦٤
٢ – سورة المائدة – الآيتان ٨٢ – ٨٣
٣ – سورة الحج – الآيـة ٢٦
٤ – الترغيب والترهيب ج٢ / ٣٥٤ /
٥ – المرجع السابق
٦ – سورة الطور – الآيات ١ – ٦
٧ – سورة الأنعام – الآيـة ٣

مســـلم ومسـلم

ثمة مسلم صدوق في إسلامه لايعرف عن الله سوى أنه يضع المطيعين في الجنة ، ويقذف العصاة في النار ٠ فتراه يسعى جهد إيمانه ليُدخله الله الجنة ويبعد عنه النار ٠ كل شيء لديه في الدنيا يسخره لهذه الغاية التي أخذها في ظاهرها ، فتراه يؤدي أركان الإيمان ولو قسريا حتى لاتفوته طاعة ، ويقف متثاقلا بين يدي ربه يؤدي عبادة ، وعن غير قناعة أو رضى يتزكى بأمواله ، ينهض في السحور وهو يشعر باستياء لأنه لابد أن يصوم حتى يقيه الله النار ، يقوم بأداء الأوامر الدينية وهو مغمض القلب والعينين ، وهكذا يبلغ مرحلة يشعر فيها بأن الإسلام يضطهده ، لكن لأنه مسلم فإنه يستمر في طاعته دون أن يتذوق شيئا من حلاوة الدنيا فيكون راغبا في الموت حتى يتخلص من هذه العبادات التي يقوم بها قسريا ٠ يمسي الإسلام عبئا يثقل كاهله ، يقوم بما يجب أن يقوم به ترهيبا ويحرص كل الحرص من زلة لسان ، أو نظرة مريبة ، أو مقدمة معصية ، ويجنب نفسه وأهليه أماكن ازدحام الناس ، أو الحفلات العامة ، أو التسوق ، أو السباحة ، أو التسوح ، أو الغناء ، أو أي مظهر من مظاهر الفرح التي قد تفتح عليه باب المعاصي ، فبيته صامت ، لاحراك ، لاصوت ، وهو يمضي في الشارع مطأطأ الرأس وفي عجالة حتى لاتزل منه نظرة تكون بداية لمعصية ، وعندما يلتقي أحدا لايتحدث خشية أن يتفوه بكلمة تغضب الله ، فهو إن تكلم لابد أن يذكر شخصا ليتحدث عنه ، وربما تخرج

كلمة سوء بحق هذا الشخص فيكون قد اغتابه وهو يدرك مدى عقوبة من يغتاب الناس ، فمن الأفضل له ألا يتكلم ، وكذلك من الأفضل ألا يستمع حديث الناس فهو قد يكون شاهدا سواء في الدنيا والآخرة ، وقد يعاقبه الله لأنه سمح لنفسه أن يستمع إلى غيبة أخوته ٠ حتى يجد نفسه محصورا بين الذهاب إلى العمل والجامع والعودة إلى البيت ، وفي البيت يحرص كل الحرص على تجنب تقنيات العصر خشية الوقوع في معصية سواء منه أو ممن يعيل ٠ إنه يضيّق مساحة الدنيا بما رحبت على نفسه وعلى أهليه ليحجّمها في حي صغير ، وفي بيت صغير ٠ ينظر إلى الله على أنه يترقب في كل لحظة منه أي معصية ليضبطه ويقذفه بها في النار ٠

إلى جانب هذا الرجل المسلم ترى مسلما يقطن جواره يرى أن الإسلام هو حالة مفتوحة نحو معرفة مفتوحة لله ، والناس أجمعين ٠ فيسعى جهد أيمانه للسفر في بلاد الله الواسعة ، ويتعرف على كل فئات وطبقات الناس ، يسعى لتعلم لغات جديدة ، يقرأ كتبا في شتى ألوان المعرفة ٠كل شيء وُجد ليتعرف من خلاله على الله ، لايوم يمر عليه دون أن يكون قد تعرف فيه على الله أكثر مما كان يعرفه البارحة ، كل حواسه ومدركاته هي موجودة فقط لتشرق بنور الله ٠ تؤدي به معرفته إلى التعرف على قوة عدالة الله وقوة مغفرته ، هذه المعرفة تبعث في نفسه حالة كبرى من الطمأنينة الروحية فكل مايحدث له هو موظف من الله لخدمته سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فكان لابد أن يلقى الجوع حتى لايفرط ثانية بماله ، وكان لابد ألايتزوج ممن كان يحبها لأنه حمد الله فيما بعد أن الزواج بها لم يتم ٠ إن عدل الله يجعله في حالة من

السكينة والأمن يستمد منهما راحة نفسية مابعدها راحة وما كان ذلك له لولا سعيه الحثيث في البحث المتواصل عن الله في كل شيء ٠ يبلغ مرحلة من الهدوء الروحي – أيا كان وضعه الصحي أو المادي أو الاجتماعي – يدرك معها أن أي شخص مهما علت مكانته أو وجاهته لايستطيع أن يدنو من مملكته البهية هذه ويشاركه الجلوس تحت ظلال أشجار زيزفونها ٠ فهو يملك كنز الإيمان الخالد الذي لايضاهيه أي كنز آخر ، إنه يسطع بشمس إيمانه ، وشمس معرفته الكبرى لله ، فإن عاش فهو في عدل الله ، وإن مات ترك ولده وأهله في عناية عدل الله ، وذهب هو الآخر مرة أخرى إلى عدل وعفو الله في الآخرة ٠ إن سعى في أمر وأفلح علم أن ذلك لخيره ، وإن فشل علم أن نجاحه كان لشره ٠ إنه مكافح نشط يقوم بما يقدّره عليه الله ويرضى بالنتيجة أياً كانت ٠ أما إذا وجد نفسه في معصية ، علم أن الله واسع الرحمة يغفر الذنوب جميعا حتى لوكانت كزبد البحر ، وأدرك بأن الحسنات يذهبن السيئات ٠ إنه يعرف الله ويحبه وبناء على هذه المعرفة والمحبة تأتي العبادة إلى نفسه نورا وضياء وسكينة ، فلايريد معها أن ينتهي عمره حتى يبقى أطول حين بين يدي ربه وهو يتأنى في عبادته ويتذوق عسل العبادة من شهدها منشرح الصدر ، مفتوح القلب والعينين ٠ إنه يوسّع على نفسه وعلى أهليه قدر معرفته لما وسّع عليه الله ، ينظر إلى الله على أنه ينتظر كل لحظة منه استغفارا وعملا صالحا ليغفر له ويُدخله الجنة ٠ لايتخيل لحظة واحدة تمر عليه دون أن يزداد إيمانا بالله ، هذا الإيمان الذي اقترن معه بالحياة ذاتها فيتمنى طولا لعمره حتى يتمتع بنكهة الإيمان ويرتقي في درجاته إلى أقصى ما يمكن من معرفة الله ٠

استفت قلبـك

يقول الله : / يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به / ١. وورد عن النبي أن قال : / أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة / . وفي الصحيح عن عمر بن الخطاب عن النبي : / الإسلام أن تشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا / . وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه : / المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده / . وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سأل النبي عن الإسلام فقال : / أن تسلم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى الله ، وأن تصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة / ٢. وعن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه أنه سأل النبي ما الإسلام فقال : / أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك . قال : أي الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . قال : وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت / . يحتاج الإنسان المسلم أن يستفتي قلبه في أي أمر من أمور دنياه وآخرته قبل أن يستفتي أي شخص آخر ، وكما يُقال في لغة الطب أن الإنسان هو طبيب ذاته قبل أي طبيب آخر ، فإن هذا الإنسان ذاته هو مفتي ذاته قبل أي مفتي ٠ ومن هنا فإن الإنسان يمكن له أن يكون فقيها على ذاته ٠ إن أي كائن مَنْ كان لايدرك عن نفسك قدر معرفتك بها ، وربما ترى فتوى تتناقض مع الواقع الذي أنت فيه

وهي تكون سليمة من ناحية الدين لكنها تلحق بك ضررا ، وربما تجد محظورا تراك مضطرا له وليس بوسعك أن تستفيض في الشرح أمام فقيه أو مفتي ليبيح لك المحظور ٠ دوما فإن الإسلام يدعوك إلى أن تكون مسالما مع نفسك ومع الآخرين وتقبل على أي عمل من شأنه أن ينمّي حالة السلم هذه في نفسك ٠ ترى مفتيا يقول لك بتحريم الموسيقى وأنها وسيلة من وسائل الشيطان ليلهيك بها عن الآخرة ، ولكنك في بعض الأوقات ترى حاجتك إلى سماع شيء من موسيقى هادئة فتطبطب على روحك كيد أم رحيمة حتى تغفو ، وعندها تدرك بأن ذلك لم يكن إلا صدى أصوات أوتار وأخشاب وحديد وريح ، أصوات مقومات الطبيعة التي هي جزء من الحياة اليومية ٠ وأنك شعرت براحة عند سماع صدى أصوات ماتحتويه الطبيعة من وسائل الحياة اليومية ٠ فأنت تسمع صوت الريح وتسمع صوت الباب وتسمع صوت جرس الهاتف ، وعندما تقع الملعقة على الصحن تسمع صدى الصوت ، وعندما تقذف حجرا في النهر تسمع صدى الصوت ، وتسمع أزيز الريح وحفيف الشجر وصوت المطر ٠ كل هذه الأصوات الآن تمضي وفق تنظيم وتسجيل فتستمع إليها وتسبّح بحمد ربك ٠ إن علاقتك الكبرى والأولى هي مع الله ومن ثم مع نفسك ، وأنت يمكن أن تقدم المبررات لنفسك أكثر من أي فقيه مادمت ترفع عن نفسك وعن غيرك الضر وتحقق لنفسك ولغيرك النفع ٠ يمكن أن تصغي إلى فتوى نفسك فتفتي لك بأن السارق ليس هوذاك الذي يمد يديه إلى ممتلكات الناس فحسب ، السارق كذلك هو الذي يمد أذنيه فيسترق كلمة ليست له ، يمد عينيه ليختلس نظرة ليست له ٠ وأمام هذه الفتيا ترى هذا الشخص يترفع عن نفسه فيقفل سماعة الهاتف عندما يرد إلى هاتفه صوت متشابك ، وكما أنه يرتقي

فـي ألاّ يمـد يديـه إلـى جيـب جـاره فيسـرق مالـه ، فإنـه يرتقـي ألاّ يمـد بصـره ليسترق عرض جاره . الإسلام هو خير وهو كل مايحقق الخير أكثر من كونه شعارات وموانع ونواهي ، وعندما يلحق الأذى والضر بالناس يخرج عن رسالته الإسلامية السلمية في الناس ٠ لقد كان الناس بحاجة إلى دفء السلم أكثر مما كانوا بحاجة إلى صقيع الحروب ٠ فجاء الإسلام ليخرجهم من صقيع الحروب إلى دفء وسكينة السلم بالكلمة الطيبة وبواسطة أنبياء حملوا كتبا ولم يحملوا سيوفا ، بنوا مساجدا ولم يبنوا ثكنات عسكرية ٠ من كل حالة السلم التي ينبض فيها قلب الإسلام يستمد الإنسان المسلم حالة السلم التي يسكن بها إلى نفسه وإلى الآخرين ٠ عندما تقدم على عمل حتى لو وجدت رخصة من مفتي ، اسأل نفسك : هل هذا العمل ينفعني وينفع الآخرين ولا يُغضب الله ٠ وعندما تمتنع عن عمل ومنعك منه المفتي ، اسأل نفسك : هل هذا العمل يضر بي ، ويضر الآخرين ويُغضب الله ؟ ٠ عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله قال : / إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقض على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار / متفق عليه ٣ ٠

يمكن لك أن تعيش مع صفحات الإسلام حياة سعيدة هادئة بعيدة عن ردّات الفعل ورعود الاضطراب ٠ تكون متمسكا بحالة الهدوء العامة في حواسك وتعطي لكل وقت وقته ولكل أمر أمره ولكل فعل فعله وأنت تنظر في شخص مضطرب يقول :

لساني يقول ولا أفعل وقلبي يريد ولا أعمل

وأعرف رشدي ولا أهتدي وأعلم لكنني أجهل

ويدركك حينئذ نور أن تفعل وتعمل وتهتدي وتعلم ٠

قال عبدالله بن عروة ببن الزبير : قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا القرآن ؟ قالت : (تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله) .

و روى ابن أبي الدنيا من حديث عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : سمعت عبدالله بن حنظلة يوما وهو على فراشه وعدته من علته ، فتلا رجل عنده هذه الآية { لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش } فبكى حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، وقال : صاروا بين أطباق النار ثم قام على رجليه ، فقال قائل : يا أبا عبدالرحمن اقعد ، قال منعني القعود ذكر جهنم ولعلي أحدهم . إن القرآن ذاته يجعلك تتفاعل معه فتكون مفتيا على ذاتك ، وتفتح القرآن فترى ربك الذي يراك وتستغفره وتسبّح بحمده ٠ إنك هنا على علاقة تفاعلية مباشرة مع ربك ولست مع فقيه تسأل أن تصلك كلمة ربك من خلاله ، أو تصل إلى سؤال ربك من خلاله ٠ مع القرآن ومع آيات الكون تكون في علاقة تفاعلية مباشرة مع ربك فتراك تحاوره وتراه يحاورك وروحك تتعمد بنور هذا الحوار ٠

قال ابن أبي مليكة : صحبت ابن عباس – يعني في السفر – فإذا نزل قام شطر الليل ويرتل القرآن حرفا حرفا ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب .

ومن حديث أبي بكر بن عياش قال : صليت خلف فضيل بن عياض صلاة المغرب وإلى جانبي علي بن فضيل فقرأ الفضيل { ألهاكم التكاثر } فلما بلغ { لترون الجحيم } سقط علي مغشيا عليه ، وبقي الفضيل لا يقدر يجاوز الآيه ، ثم صلى بنا صلاة خائف ، قال ثم رابطت علياً فما أفاق إلا في نصف الليل .

وذات يوم سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا يتهجد في الليل ويقرأ سورة الطور فلما بلغ إلى قوله تعالى { إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع } قال عمر : قسم ورب الكعبة حق ، ثم رجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه .

قال محمد بن حجادة : قلت لأم ولد الحسن البصري ما رأيت منه – أي الحسن البصري – فقالت : رأيته فتح المصحف ، فرأيت عينيه تسيلان وشفتيه لا تتحركان ٠ فبمحمد صلى الله عليه وسلم / تبين الكفر من الإيمان ، والربح من الخسران ، والهدى من الضلال ، والنجاة من الوبال ، والغي من الرشاد ،والزيغ من الفساد ، والمتقون من الفجار ، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من سبيل المغضوب عليهم والضالين .

فإن خدعك العالم كله ، لن تكون نفسك كذلك ، لأنها الأحب والأقرب إليك ولأنك الأحب والأقرب إليها ، فالحق عيوف والباطل شنوف ، والشيطان متكئ على شماله يدب بين الأمة بالعداوة والشحناء ، عياذا بالله من فتنة جاهل مغرور ، أو خديعة فاجر ذي دهاء وفجور يميل به الهوى ويزين له الشيطان طريق الغواية والردى ٠ قال العزيز الحكيم : / من اتبع هداي فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى / ٠ يقول بعض المفسرين أن الله تكفل لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لايضل في الدنيا ، ولايشقى في الآخرة ٠ ففي الدنيا يعطيه أعظم نعمة وهي نعمة الإيمان ، وفي الآخرة يعطيه ماهو أعظم وهو نعمة النظر إليه تبارك وتعالى . ورد في دعاء النبي :/ اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرار مضرة ، ولافتنة مضلة / رواه النسائي ، وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : / إذا دخل أهل الجنة نادى مناد : ياأهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ماهو؟! ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويُجِرنا من النار ؟! قال فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه سبحانه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه / . وليس لك إلا الله ، وليس لك دليل إليه أقرب من قلبك / فاعبده واصطبر لعبادته / ٤. واعلم أن الله لايكلف / نفسا إلا وسعها /٥. و / وتكلف إلا نفسك / ٦. و/ ولايكلف الله نفسا إلا ما آتاها ٧. / / يابن آدم ، خلقت كل شيء لك ، وخلقتك لي ، فبحقي عليك لاتشتغل بما خلقته لك ، عما خلقتك له / . وقد ورد في بعض الأثر بأن /

المؤمن أكرم عند الله من بعض ملائكته / . ليس لك إلا الله الذي هو وحده صمدك الذي تصمد إليه في استعاذتك وعبادتك ، وتعتضد به كل ساعة وهو الذي لايحتاج منك شيئا وأنت الذي تحتاج منه كل شيء / ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم /٨. وفي الحديث القدسي : / ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا ، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندي شيئا / . وانظر هنا إلى دعاء النبي الذي يمكن للمرء أن يردده ليدنو به من ربه فيشرح له صدره : / اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، ولايخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وذل لك جسده ، ورَغِمَ لك أنفسه ، اللهم لاتجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفا رحيما ، ياخير المسؤولين ، ويا خير المعطين / ٩ .

مراجع

١ – سورة الحديد – الآية ٨٢

٢ – رواه أحمد

٣ – صحيح البخاري ٩ / ٨٦ وصحيح مسلم ٣ / ١٣٣٧

٤ – سورة مريم – الآية ٦٥

٥ – سورة البقرة – الآية ٢٨٦

٦ – سورة النساء – الآية ٨٤

٧ – سورة الطلاق – الآية ٧

٨ – سورة النمل – الآية ٤٠

٩ – رواه الطبراني عن ابن عباس

التطرف الاجتماعـــي

تلبث نزعة التطرف مستبدة بحاملها حتى تغدو في مذهبه منهاجا عاما للحياة كافة ، فالخطوة الأولى نحو علاج أي داء اجتماعي أوعضوي أو روحي هي / الكي / ٠ فتسري روح التطرف كسرطان في شريان الحياة الاجتماعية حتى يغدو ركنا أساسا من أركان التفاعل الاجتماعي الذي تتفاقم فيه حالات الخصومة الاجتماعية ويشعر فيه كل فرد برغبة جامحة للانتقام من الفرد الآخر ٠ فترى تفشي حالات الثأر والوشاية والخصومة تتغلغل في أركان وبنية هذا المجتمع من جوار وأقرباء وأخوة ، فيكون الفرد من أبناء هذا المجتمع معبأ بنزعة العنف وهو ينتظر أي وخزة ليفرّغ فيها هذه الشحنة التي تأكله جسدا وأعصابا كما تأكل النار الحطب ٠ وإن لم يجد هذه الوخزة التي من شأنها أن تخفف عليه من لهب النار فلا يتردد من أن يفجرهذا النزوع في ذاته ٠ إنه يشبه حامل المطرقة الذي يرى البسامير في كل شيء حوله ، وشتان بينه وبين حامل الورود الذي يرى في كل شيء حوله تربة صالحة ليغرسها ٠

بالأمس كان الإنسان في مجتمعاتنا إذا بلغ به اليأس مبلغا مؤثرا تراه يقدم على الانتحار في صمت وفي دجى الليل دون أن يسمع به أحد ليضع نهاية لحياته المأساوية ، بينما الآن فإن ذات الشخص يلجأ إلى تلك النهاية ولكن بطريقة أخرى وهو هذه المرة يدرك بأن هذه الطريقة تخلصه كذلك من احراجات

اجتماعية قد يخلفها لأهله ، ومن جهة أخرى قد تؤدي هذه الطريقة به إلى رحاب الجنة ، أو على الأقل لايكون قد انتحر مجانا ، فهو قام بهذا العمل الجهادي بفتوى شرعية من مفتي ، وإن تعرض لإدانة دينية فهو لاعلاقة له وسوف يعلّق هذه الإدانة برقبة المفتي يوم القيامة ٠ وإن كان هذا المفتي / السياسي / موجودا على الأغلب داخل تنظيمات وأحزاب سياسية ، فيقابله المفتي / الاجتماعي / الذي يكون متواجدا بشكل دائم في عمق القاع الاجتماعي ينشر فتاواه في السواد من الناس ، فهو لايغيب عن وليمة ولاعن عزاء ولا عن عقد قران ولاعن معمل ٠ إنه ينشر ثقافة اللاتسامح ، ثقافة الغلو ، ثقافة الوشاية والانتقامات ٠ إن بعض هذه المجتمعات يتحول إلى جحيم مسعور من لهيب التطرف ، فهذا أخ قتل أخاه ، وهذا زوج خانته زوجه ، وهذا على خصام منذ ربع قرن مع أبيه ، وهذا احتال على جاره ، وهذا مغتاب ، وهذا لص ، وهذا يتاجر في مهور بناته ، وهذا ينشر الفتنة ، وهذا مراب ٠ فلا تكاد تجد شخصا صالحا في جحيم هذا المجتمع ، وإن وقعت على هذا الشخص الصالح بقنديل ديوجين فتراه منعزلا منبوذا بلغ به اليأس في الصلاح أقصاه ٠ وعلى هذه الأرضية لايخلو الأمر من أن ترى السلطات تكون في ذروة نشاطها وحيويتها ، وأمام تفاصيل هذا التعامل مع الوقائع المخزية فإنها تفقد حالة الاحترام لهذه الفئة الضالة التي لاتحترم بعضها البعض وتسطوعلى أموال وأعراض بعضها البعض ولاتصدر منها كلمة صدق ، فيكون التعامل معها دون التعامل مع الإنسان وشبيها بالتعامل مع البهائم ٠ وهنا كذلك يتم تسجيل الانتهاكات الصارخة بحق الإنسان من قبل هذه السلطات التي تعلن أحيانا وفي بعض وسائل الإعلام سواء بذكاء أو بغباء بأن

هذا هو التعامل الوحيد الذي من شأنه أن يحقق الأمن مع هذه الفئة الضالة ، إنهم مازالوا يحملون بدائية الإنسان ونزوعه العدواني ولايصلح معهم غير العصا ، كما أن هذه الرعية هي دون مستوى أن تكون قادرة لتبدي رأيها في المسائل الكبرى ٠ إنها تحتاج إلى أن تستجيب فقط سواء بالكلمة أو بالعصا ٠ مثل هذه العلاقة لاتمضي قبل أن تخلف أثرا كذلك لدى / الرعية / وهنا نرى نمو غريزة قتل الحاكم تنشط بكثرة في هذه الأوساط ، وينقسم القتل هنا إلى مستويين ، المستوى الأول بالتصفية الجسدية المباشرة ، والمستوى الثاني بالتصفيق والتمجيد له في كل شيء وإشعاره بأنه فوق الأخطاء البشرية وتعزيز نزعة الألوهية لديه ، وهذا أكثر قسوة من التصفية الجسدية ذلك أنه تصفية لفطرية الإنسان وتلقائيته لديه وقد تم تسجيل العديد من هذه الوقائع وعلى مختلف مستويات الحكام ودرجاتهم في البقاع التي يحكمونها في العالم منذ بدء الخليقة وحتى يوم الناس هذا ، وهذا أيضا يولّد في نفوس هؤلاء الحكام قوة الرعب من نظرات الناس ، والتجنب من الوجود في أوساطهم إلا في حالات نادرة يحتاطون فيها بحراس الحماية الشخصية ٠ وأمام كل هذه التفاعلات فيمكن أن تنحدر هذه الغريزة من قتل الحاكم أو سفيره أو وزيره أو جنرالـه أو محافظه أو حتى شرطيه ، إلى قتل الأب وفق المستويين ذاتهما فتكون حوادث قتل الأب متفشية في هذه المجتمعات كتعويض عن قتل الحاكم لأن الأب كذلك يمثل سلطة أبوية لاتقل سطوة من سلطة السلطان ، ويمكن أن تنجم عن ذلك أمراض نفسية وعصابية عديدة في أوساط هذه المجتمعات ، مثل الأب الذي دوما يهدد بالانتحار حتى يفرض سلطته الأبوية على سكان بيته ، أو يصاب شخص بهاجس الخروج إلى المرحاض ، أو تعاني فتاة من

شعور عميق ودائم بالإثم كتعبير عن حالة الكبت التي تعانيها ، أو أنها تعاني من خجل شديد في الظهور أمام الناس ، أو أن يُنادى باسمها في مكان عام ، أو تخجل هي ذاتها من ذكر اسمها في مكان عام ، فتسعى مابوسعها إلى عدم لقاء الناس من كثر حجم الخجل الذي تعانيه تحت وطأته . هذه الحوادث التي تكون نادرة الحدوث في المجتمعات التي تجنح نحو الانفتاح والوضوح وتجعل نوافذ المعرفة مشرعة في كل اتجاهاتها ٠

إن التطرف ينخر في عظم المجتمع كما ينخر الدود في جذع الشجر ، وليس بوسع أي قوة أو سطوة في العالم أن تهلك أو تفني مجتمعا قائما من الكرة الأرضية بالغا مابلغت ، بيد أن قوة وسطوة التطرف يحالفها الحظ في هذه المهمة ، كون هذه القوة وهذه السطوة تفسحان المجال ليفتك أبناء الجلدة بعضهم ببعض ٠

لقد نجحت ثورة التطرف في تفتيت دفء الحياة الاجتماعية والتآلفية في أعماق مجتمعاتنا السلمية الآمنة ، واستطاعت أن تطفئ بنسبة عالية شمس سحر الشرق التي كانت تغري الآخرين ليأتوا ويستمدوا شيئا من هذا الدفء إلى أرواحهم الباردة ٠ لقد كان حلم طالبة أو حتى أستاذة جامعية من أبناء الغرب أن تقترن بطالب من أبناء هذا الشرق لتأتي وتعيش معه في دفء هذه الشمس السحرية ، وبينما وهي ترى ملامح الظلام الأبدي بات يخيم على هذا الشرق تتردد في تلك الأمنية وبتنا نلاحظ انخفاض هذه النسبة إلى أدناها بين طلبتنا الذين كانوا يجلبون معهم الشهادات ويجلبون النساء الشقراوات أيضا ٠ زد على ذلك فإن غالبية هذه النساء ينجحن في استقطاب طلبتنا ليمكثوا هناك في بلاد

الصقيع معهن ، لأن الصقيع مع فسحة ضوء بالنسبة إليهم أفضل من دفء في ظلام أبدي .

كنتُ أرغب في أن أقول شيئا غير هذا وهو أن الأفراد هم لبِنات أي مجتمع من المجتمعات البشرية وهم الذين يضعون منظومته ، وأن أي مجتمع لايحقق مجتمعيته إلا بقدر ما فيه من أفراد يمارسون السلوك الاجتماعي فيما بينهم ضمن منظومة اجتماعية عامة ممتدة من تراث زمني اجتماعي متعاقب عبر قرون مديدة . وكانت الأديان تتحاقب لتقر بعض هذه السلوكيات الاجتماعية الإيجابية التي كان عليها الناس وترفض ماتراه لاتناسب المجتمعات المتدينة الجديدة .

فالإنسان كان يمارس الزنا والشذوذ والقمار ، والعبودية والرق ، وكانت المرأة تتزوج بأكثر من رجل في وقت واحد ، وكان هناك الحب العفيف ، وفي بعض مجتمعات تضع المرأة الخمار والحجاب ، وكان الذي يعتدي على شخص يُعتدى عليه بمثل ماعتدى أو يُعفى عنه . فكانت الأديان في مراحلها تنظم هذه العادات والتقاليد وتضفي على ماتراه نافعا مباركة إلهية . وعندما توقف ظهور الأنبياء ، وقيل للإنسان بأن ما أراد أن يقوله الله للإنسان عبر الأنبياء قد قاله ، عندذاك أخذت المنظومات الاجتماعية تنفصل عن الأديان ولم يعد يحضر الأنبياء ليتدخلوا فيها حتى بات السلوك الاجتماعي في بعض جوانبه الحديثة في معزل عن وصايا الدين .

فعلى سبيل المثال إذا قال الدين للناس بأن المرأة ترث عن مؤرثها ، فإن عادات وتقاليد اجتماعية في بعض مجتمعات تنهى عن ذلك .

وإذا رأى الدين أن خير النساء أيسرهن مهورا ، رأت بعض عادات وتقاليد أن خيرهن أعسرهن مهورا .

وهنا يأتي السؤال : هل نمضي في هذه المنظومة الاجتماعية ، أم ننظر إليها بعين الدين ، فنفعل مانراه لايناقض الدين ، ونتجنب عما يناقض الدين ؟ وللإجابة على هذا السؤال الذي ربما يسأله كل فرد لنفسه ، يقوم البعض بالممارسة الظاهرية لما لايقر به الدين ويقر به المجتمع ، وبالممارسة الباطنية لما يقر به الدين ولايقر به المجتمع ، وبذلك يظن بأنه يقي نفسه أن يكون منبوذا أو منحرفا عن منظومة المجتمع . يكاد هذا المنهج ينتشر في مختلف شرائح بعض المجتمعات حتى يكاد يكون مذهبا عاما ، فالفرد يفعل علانية مالايريد فعله ، ويقول مالايريد يقوله ، ويفعل خلسة مايريد فعله ، ويقول مايريد قوله . ومع مرور الزمن يأخذ هذا المذهب أبعاده في مختلف الجوانب الفنية والذوقية والأخلاقية والصناعية والدينية ، فيعتاد الناس سماع أغنية هابطة ، مشاهدة سينما هابطة ، قراءة صحافة هابطة ، الاقتداء بفقيه هابط كثير الظهور في برامج شبابية هابطة على التلفاز ،لتلقي تربية هابطة . وبالمقابل فإن هذا المجتمع سوف ينتج صناعة هابطة ، زراعة هابطة ، اقتصادا هابطا ، فنا هابطا ، أبنية هابطة .

ويستمر هذا حتى يتحول الوهم هو الحقيقة الوحيدة التي يؤمن بها هذا المجتمع ، حتى يتحول هو نفسه بكامل تراثه إلى مايشبه الوهم في نظر المجتمعات الواقعية التي تحفر في عمق الواقع كبرى منجزاتها وبصماتها الحضارية . وربما ترى في هذه المرحلة أن هذا المجتمع يفرز أناسا منبريين بامتياز فترى هذا الشخص المنبري يعتلي منبرا ليقول للناس بأن مجتمعه هو الأول في

الصناعة على هذه الأرض ، وهو الأول في علم النفس والطب والفلك ، وهو من أسياد علوم الزراعة وتربية المواشي وركوب الخيل ، وهو الأول في الفنون والآداب والتربية . ثم تراه يوصم المجتمعات الأخرى بالانحلال الأخلاقي والتفكك الأسري ، والتدهور الاقتصادي ، وانتشار الأوبئة والفصام والأمراض النفسية ، وتفشي الجريمة ونسبة الانتحار ، والسطو والبطالة ، والاغتيالات . وما ذلك إلا لأنهم كفرة يستحقون مايجري لهم من مآسي نتيجة كفرهم وتمردهم على الفطرة البشرية التي فطر الله عباده عليها . إن هؤلاء ليسوا أكثر من مجموعة كفرة وملاحدة يموتون جوعا لولا ثرواتنا وصناعتنا وزراعتنا وعلومنا وهندستنا واختراعات ونظريات أجدادنا التي سطوا عليها ونسبوها في غفلة منا لأنفسهم ، إنهم باختصار مجموعة معتوهين تعيش بغرائز بهائمية في عصفورية لاتصلح أن يقيم فيها الإنسان يوما واحدا ، بينما نحن في ديارنا الآمنة سيمانا في وجوهنا نصوم ونصلي لرب الكعبة ونهنأ بكل دواعي العفة والحياء من الله .

ثقافـة الانفتاح

يمكن لك أن تستعين لكل خطوات المجد هذه بنزعة التمرد الكامنة في أعماقك ، يالها من كلمة رائعة تلك التي أورقت معانيها في حدائق الإنسان زهور الانفتاح والحرية والفوضى المشمسة ٠ التمرد هو الذي حقق إنسانية الإنسان ، فالذي لايحرك نزعة التمرد في داخله ولو لحظات قليلة في العمر لهو شبح أكثر مما هو كائن بشري حي ، ولايتذوق عسل التمرد إلا ذاك الذي يعيش الحالة روحا وجسدا ، ليس بوسع الإنسان أن يكون نصف متمرد لأن التمرد بذاته هو حالة كمالية تتجه بصاحبها إلى الإشراق الروحي والرقي المعرفي ٠ كل الإنجازات البشرية المذهلة انطلقت شراراتها الأولى من فكرة التمرد ، أما أولئك الذين يمضون بنصف عقل أو بربع عقل فانهم يلبثون يراوحون في أماكنهم العقلية والروحية والجسدية والزمنية ٠ الإنسان الانقلابي هو ذاك الذي يرضع حليب التمرد إلى آخر لحظات عمره ، الذي يتمرد على أمه وهو يرضع حليبها ، إنه ذاك الذي يصيح من داخل البيضة كما يقول المثل ، يمكن لك أن تحطم شيئا الآن كخطوة أولى نحو تمرد ٠ وأريد أن أقول أن التمرد هو شعور عام بعدم الرضى عما يدور حولك وأن كل شيء هو ممل ومضجر لايحمل جديدا ، هذه حالة أولى من حالات يقظة روح التمرد والعصيان ، وهي تأخذ في التطور إلى أن تتحول إلى أفعال ٠ الإنسان ماكان ليعيش في النعيم لولا تمرده ، وهو الآن يقطف ثمار هذا التمرد في مختلف المجالات العلمية والفكرية والتقنية وهكذا يكون كل هذا الإنجاز الهائل الذي بلغه الإنسان عبارة عن حالة كبرى من

التمرد بالنسبة لألئك الذين عاشوا قبل أربعة آلاف سنة ٠ثمة أناس حاربوا كثيرا ولسنوات طويلة حتى يزرعوا بذور الهزيمة والجبن في أعماق ناسنا ، حاربوا / وجاهدوا / كثيرا في سبيل أن يغتالوا نزعات التمرد المباركة في أعماق أصحابها ، وهم الآن يباركون للناس موت الشخصية لديهم ، يباركون لهم كل هذا الموت الذي تفوح روائحه النتنة من دواخلهم ، ويبدو للبعض للوهلة الأولى أن الناس ماعادوا يجيدون غير الهروب ويبدوا له أنهم انسجموا مع هذا الواقع وهم أنفسهم بدءوا يدافعون عنه ٠ المأساة بلغت ذروتها ، حتى أخذ اليأس يصيب هؤلاء الأبطال الذين يعملون في الظلام ، فعلى أي خط يعملون وفي أي اتجاه يمضون ، ولكنها رغم كل ذاك البؤس هي مواجهة لذيذة عندما يقدمون مواقف نقية في المجتمع وهم يعلمون بأن محاولاتهم الصغيرة تقدم قطرات ماء لهذا الحريق الشاسع ٠ الحرية تحتاج دوما إلى أناس متمردين أكثر مما تحتاج إلى أناس انهزاميين يرضخون تحت الأمر الواقع ٠ تهب نسمات التراجع الكبرى في فضاء إنسان بلغ به اليأس مرحلة ما عاد فيها قادرا على مد خطوة إلى أمام على مختلف صعده الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والصحية ، ثم في فصول قادمة تشتد غيوم فضائه دكنا وتتحول النسمات في تطورها إلى عواصف ٠ هنا يتطور هذا الإنسان جنبا إلى جنب مرحلته الجديدة تاركا التراوح في المكان ، أو الصمت الذي كان به مرحلة النسمات ، فيبدأ خطوات التراجع نحو الوراء على كل صعيد منتقما من ماضيه ومن كل فعل نافع قام به إدانة لتلك النسمات التي غدت تشتد في هبوبها عليه ٠ فيمسي هذا الشخص دائرا في فضاء مفتوح من هذيان ٠ قد نرى نماذج كهذه في معظم طرقات العالم فنقول : كان الله في عونهم ٠ ونمضي في سبيلنا، بيد أن المأساة تكمن عندما نرى أصحاب هذه

الأقوال والأفعال الهذيانية يشغلون مواقع تربوية حساسة في حركات بعض مجتمعات ٠ فتسير هذه الأفواج البشرية الهائلة في حلكة ليل مستهدية بهذيان هذا الكائن ٠ يمكن الآن أن نقوم بإلقاء نظرات سريعة إلى التاريخ التربوي والثقافي للمجتمعات التي تنعم بمجد الحرية الفكرية والدينية والاقتصادية والاجتماعية فنراه يرتكز على رموز ثقافية وتربوية كبرى في تاريخ الإنسان بدون الالتفات إلى مكان مولد هذا الفكر أو إلى قوميته أو إلى انتمائه الديني ٠ أجل فإن القصور كل القصور كامن في معلومات تراكمية ترد في غير زمانها ولا مكانها على صفحات مناهج تربوية من رياض الأطفال ، والى المراحل الجامعية ، حتى لو وردت على ألسنة أناس يعيشون عصرنا ، ولكنهم لاينتمون إلى روح هذا العصر العالمي المفتوح بأي صلة سوى أنهم يستخدمون المصاعد في الأبنية ، ويأكلون بالشوكة ٠ لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص محليين لا تكفي لرسم مناهج تربوية لشعب بأكمله وبمختلف تركيباته وميولا ته ونزعاته ، وهذه اللجنة المحدودة تكون بذات الوقت منطلقة من نظرة محدودة واحدة لا أحد فيها يختلف مع الآخر ، وأحيانا يتم تكليف شخص لوضع منهاج تربوي لجيل بأكمله ، ويكون هذا الشخص ذاته فاشلا في تربية ابنه ، فاشلا في العناية بصحته ، وهو غير مطلع على ثمار الفكر البشري عبر تاريخه ، وغير مطلع على مراحل تطور وتراجع وتعاقب الحضارات والمجتمعات البشرية ، إنه ببساطة ذاك الشخص الذي هبت عليه نسمات التحول الكبرى ، وهذا يأتي على مواقع حساسة مختلفة تفعل فعلها في حركة المجتمع ٠ إنهم يمثلون ثقافات مجتمعاتهم ويسهمون في الغفوة التثقيفية في المراحل التي يمثلونها ، وصحيح إن أي إخفاق يصيب الذوق الثقافي عند المجتمع فإنهم يتحملون المسؤولية

التاريخية كونهم شغلوا مواقع تاريخية ، أو قبلوا أن يشغلوها وفشلوا في مهماتهم ، ولكن المجتمعات أيضا تتحمل جزءا من المسؤولية لأنها تقبل أن ترسل أولادها إلى منهاج تربوي كهذا ٠

التقوقع على الذات والتغني بأمجاد الماضي فحسب لايقدم شيئا في واقع بات يستعين كل جزء فيه بالجزء الآخر كجسد واحد ٠ ويجدر بنا أن ندرك المأساة أمام تقارير عالمية تضعنا في درجة الصفر في القراءة عالميا ، فنحن الذين نبلغ مئتي مليون نسمة لايوجد كتاب واحد يُطبع لكل هذا العدد مئة ألف نسخة ، والواقع أن أكثر الكتب تطبع خمسة آلاف نسخة لمئتي مليون نسمة ، وهذا يأتي على الترجمة إذ أن تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في العالم العربي يشير إلى أن ما يترجم إلى اليونانية التي يتكلمها أحد عشر مليونا فقط يتجاوز خمس مرات ما يترجم إلى العربية كل سنة ٠ ليس من سبيل غير أن ندرك فقه الواقع ونعيش لحظاته في عالم لم تعد فيه ثقافة الانغلاق مجدية بأي لون من الألوان ٠ودوما علينا أن نصغي للآخر ، ونقرأ للآخر ، ونتعلم من بعضنا البعض ٠ ليس ثمة خوف من أن يسعى الإنسان مخلصا حتى يجعل من كوكب الأرض بيتا واحدا لعائلة بشرية متحابة ، بل الخوف ، كل الخوف من سعي الإنسان إلى تقوقع كل مجتمع على ذاته في عزلة وعداوة وبغضاء وحدود ملغومة ٠

يمكن لنا أن نتحدث عن العلاقة بين كائنين نقيضين كما لو أننا نستمع لمقاطع موسيقية مدهشة تصنع لنا أجنحة للتنقل من شجرة إلى شجرة ، إنه لاشك حديث ممتع لما له من إمكانات لامحدودة لسعة الأفق ٠ الآخر ٠٠ ذاك الآخر الذي لايوجد كائن في الكون لايحتاج إليه مهما كان هذا الكائن قويا أو واهنا ٠ وأظن

أنه عندما نكون في مكان ما ينعدم فيه وجود هذا الآخر ، علينا أن نسعى قبل أي شيء لصناعة هذا الآخر ، أي أن ننتقي شخصا فندرّبه ليكون آخرا نقيضا لنا يملك عينين نافذ تين ناقدتين ٠ إن الصديق الذي اعتاد أن يمتدحنا ، إنه في أفضل الأحوال يجعلنا نحافظ على ما نحن به من منجزات ، بينما الآخر الذي ينتقدنا يدفعنا لمزيد من الإنجازات العظيمة التي نواجه بها انتقاده فيمنحنا فرصة أن نعرف ماكان غائبا حتى نتمكن من أن نواجهه به ونصلح من شأن مانحن فيه من نقد ٠ من هنا يمكننا أن نتفقه ونكتسب المزيد من ثقافة وآداب الإصغاء إلى الآخر الناقد بدرجة أعلى من الإصغاء إلى المادح ٠ بطبيعة الحال فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الشجاعة والانفتاح كي نقدم دوما للآخر الهدايا على انتقاداته المتوالية لنا ٠ عندما تكون زوجتك نسخة طبق الأصل منك فإنها لاتلزم بيتك لأن النسخة الأصلية موجودة ، ولكن تحقق زوجتك حضورها كشخص آخر عندما تكون شخصيتها مختلفة عن شخصيتك ولديها ماليس لديك من تفكير وإمكانات وطاقة ، وتأتي بأفكار لاتأتي بها أنت ، يكون لها عالمها الخاص ، ولاتكون أنت الكائن الوحيد الذي يشكل عالمها وشخصيتها حتى تتحقق الشراكة في الحياة وليست التبعية والعبودية ٠

ويمكن لابنك أن يقول لك ما لاتراه لأنه قد يسمع عنك مالاتسمعه أنت ، وقد يرى فيك ما لاتراه أنت من موقعه ابنك وكونه في ذاك العمر الذي ينمو ويترعرع معك ٠وهو يسمع مالاتسمع ويرى مالاترى ، يمكن أن تمنحه أسباب الشجاعة التي يقول بها ما يريد فيحقق شخصية مستقلة ثالثة في البيت الذي هو لك ولزوجتك وله ، كما يمكن أن تمنح ابنتك فرصة أن تقدم للبيت ما تراه ، وأن

يكون لها الحق والحرية بالتصرف في شؤون البيت فتحقق شخصية رابعة تأتي بما لايمكن للثلاثة أن يأتوا به ٠

عندذاك يمكن أن تقارن بين بيتك وبين بيت سعى ربه أن يجعل كل مافيه نسخة مكررة منه حتى في طريقة المشي والعلاقات بالآخرين ٠ إذا ألقينا نظرات إلى المنجزات البشرية الهائلة التي تحققت على كافة الصعد فنرى أن التنافس كان خلفها بالدرجة الأولى ، ودوما أولئك العظماء حققوا عظمتهم تحت عبارات النقد التي كانوا يتلقونها منذ أن كانوا أطفالا ، ونجحوا في أن يُكسبوا أنفسهم شجاعة ومرونة أن يصغوا ويقرؤوا النقد من أعلى مراحله ويتحاوروا معه ، وأبدا فإن النقد لايهد إلا أولئك الذين لديهم استعدادات ذاتية للفشل ، وعندها يتحول النقد في مذهبهم إلى شكل من أشكال العداء ، فتكون أمام أنك أما أن تؤيده في كل شيء بصمت ، أو أنك تتحول إلى عدو ٠

عندما تغلق الباب على نفسك ولاترى ولاتسمع أحدا فإنك تعجز بكل المقاييس أن تحقق عملا يجدي ، لذلك بدأت كل الحركات العظمى من أعماق الطرقات الزاحمة بالناس ٠

فلم يكن بوسع الرسل أن يغلقوا الأبواب على أنفسهم فتنشر رسالاتهم من تلقاء نفسها في الناس ، بل كانوا يتغلغلون مع نبض الآخرين ويكونون في الناس أكثر مما يكونون في منازلهم ، ويستمعون للنقد أكثر مما يستمعون للمديح ، ولم يكن بوسع تلك الفلسفات المشرقة أن تظهر لولا مواجهة النقد الذي كان دوما يحض على المزيد من التألق الفكري ٠٠ تلك المعارك الفكرية الطاحنة التي انفجرت فأتت بسارتر ، وكامو ، وفلوبير ، ونيتشه ، وشوبنهور ، وروسو ٠

وفي بلادنا أتت بطه حسين ، والعقاد ، والمازني ، ورفاعة الطهطاوي ، ومحمد عبده ، وعلي عبد الرازق ، وقاسم أمين ، وحتى بنجيب محفوظ ٠

منذ مدة قال لي صديق بأنه نشر بحثا عن الغناء في إحدى وسائل الإعلام فانتقده أحد الأشخاص بقوة إلى درجة التجريح وطلب رأيي في أن يقيم عليه ادعاء شخصيا بالنقد غير اللائق ، فقلت له بأن رأيي هو ألا يفعل ذلك ، ويعيد قراءة هذا النقد ، بعد ذلك قال لي هذا الصديق : تعرف بأن هذا النقد جعلني أتوسع في بحثي إلى أن بدأ يأخذ هيأة كتاب بعد أن كان بحثا موجزا ٠ ما يهم هنا هو ألا نفقد محبتنا للآخرين ، وأن نحسن الظن دوما بما نراه وما نسمعه ، عندها ندرك أن كل شخص يقدم لنا خدمة بطريقته ، مهما كان شكل هذه الطريقة في بدايتها ليس المهم أن يسرنا المديح ، بل علينا ألا نغتاظ إلى جانب ذلك من سماع النقد الذي يتحول في رحاب صدورنا إلى تحاور ، علينا قبل أي اعتبار أن نؤمن بأنه ليس من الصواب أن تكون نظرتنا دوما تحمل كل الصواب وأن نرغم على الآخرين أن يكونوا مرددين فقط لما نقول ، وألا نسمع منهم إلا ما أمليناه عليهم ٠

إن حاجة الإنسان للنقد لاتقل عن حاجته إلى المديح والمكافآت ليستمر في عمله ومنجزاته ٠ الكائن الذي لايؤمن بوجود الرأي المخالف هو كائن بدون أي تردد ينقاد تحت سياط عقد متراكمة عليه ، وهو يظن بأنه من خلف ذلك يحقق راحة لنفسه ٠

عبر التاريخ البشري نقع على نماذج من هؤلاء الذين يرعبهم الرأي الآخر إلى درجة أنهم لايستطيعون النوم أو الهدوء لمجرد وجود هؤلاء في الحياة كلها ، فنرى المنقود المستبد لايتردد من الاعتداء ذاك الذي خالفه في الرأي ، فيشعر

بعدئذ بأنه حقق طمأنينة لنفسه ، والحقيقة هي ليست طمأنينة بقدر ماهي محاولة أخرى لتعزيز هذه الحالة المرضية في داخله ، فهو لمجرد أن يدرب نفسه ويعودها على سماع هذه الآراء سيكتشف مدى السعادة التي تنتابه ، وسيكتشف كم أنه قوي لأنه يستمع للآراء الأخرى ويتحاور معها من الموقع الذي شاءت الظروف أن يكون فيه ٠ ونحن نلمس مدى مشاعر الاستقرار لدى بعض الذين يتحاورون * مع منتقديهم ويفسحون لهم مجالات للتعبير بكل الوسائل الواسعة الانتشار ، فنرى حاكما يملك في دولته قوة العالم ، يملك أن يزلزل العالم كله بقوته وجيوشه التي تأتمر بإمرته ، نراه بكل تواضع يذهب فيمتثل أمام القاضي الذي يطلبه للتحقيق في ادعاء أقامه عليه شخص ما من السواد ، فيسمع في الملأ توجيه النقد والإدانة إليه فيتحاور حتى لو كانت هذه القضية غاية في الشخصية والسرية ، والواقع فإن المقارنة عبر التاريخ تبين دوما بأنه عبّر عن قوته وسوية شخصيته وانتمائه إلى الإنسان ٠ليس من اليسر أن تحقق بطولة ولا تميزا في شخصيتك عندما تحب من يحبك فحسب ، ولكنك تحققهما عندما تدرب نفسك وتنجح في أن تحب من يبغضك ٠

إن الأنانية هي غرسة في أعماق الإنسان وليس بوسع إنسان أن يولد بدون أنانية ، ولكن البطولة تكمن على قدر مواجهة هذه الأنانية وارضاخها لعوامل الثقافة والنضج والتسامح والأخوة والمحبة ، كما تكمن روح الهزيمة في إرواء هذه الغرسة بمياه القمع والعنف وقهر الآخرين ٠ ثمة حكمة قديمة في التراث العربي تقول : / العفو عند المقدرة / أي أن تأتي إلى الذي أخطأ بحقك سواء

---

* الحَوْر ، الرجوع عن الشيء وإليه . والحَوْر : الجواب ، يقال : كلمته فما رد إلى حَورا . أي جوابا .
حاوره محاورة وحوارا : جادله . والمحاورة : المجاوبة ، أو مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة . والتحاور : التجاوب .

بالقول أو بالفعل فتقول له بشموخ وأنت في ذروة قدرتك عليه : لقد عفوت عنك ٠٠ اذهب فأنت طليق ٠ ودوما حتى الأديان وإن كانت تجيز في بعض الأحوال العقاب بحق من اعتدى عليك بالقول أو بالفعل ، فإنها في الوقت عينه توجه إلى أن العفو أقرب إلى التقوى ٠ ثمة إجازة دينية أجازها الله ولكنها منغمسة بالبغض الإلهي منها ٠

ثمة مقولة هامة لعمر بن الخطاب في هذا الصدد يقول فيها : / رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي / ٠

الحوار سلوك وممارسة ومنهج عام للحياة المعرفية والانفتاح على العالم المظلم ، وعندما يفقد شخص إيمانه بالحوار فإنه يغلق كل أبواب المعرفة والنور أمام ذاته فلم يعد يصغي للآخرين أو يقرأ لهم ، أو ينسجم مع العلاقات الاجتماعية تاركا نفسه متقوقعة في ظلماء ذاتها ٠

يحدث أن نقف أمام شخصين حضرا للحوار يتحدثان ساعتين متتا ليتين دون أن يكون للحوار أي حضور بينهما ٠ فكل واحد قد جاء بمواقف ومفاهيم مسبقة لاتتزحزح ويسعى لفرضها فرضا لاجدال فيه على الآخر وبذات الوقت يفرض عليه الإصغاء والصنمية والصمت السفلي ٠

فيتحدثان في وقت واحد دون أن يقبل أحدهما الإصغاء للآخر إلى أن يحتد الحديث ويبلغ مبلغا يسعى فيه كل واحد أن يكون صوته هو الأعلى من صوت الآخر ، ثم يبلغ مبلغا إلى أن يتحول إلى جملة شتائم وعبارات استفزازية في سبيل أن يستفز بها كل واحد الآخر ٠

ولعل هذا ما نلحظه بين آن وآن في بعض برامج حوارية على شاشة التلفاز فيمضي وقت من الزمن دون أن يقبل أحدهما الصمت والإصغاء إلى الآخر ودون أن يقبل كذلك أن يصغي إليه المشاهد المستمع ٠

فيمضي الوقت دون أن يقول أحدهما جملة مفيدة للآخر ، ودون أن يخرج المشاهد المستمع بشيء مفيد لقاء الوقت الذي أضاعه في يومه ذلك ٠

دوما فإن الحوار هو الوسيلة الأنجع إلى معرفة الحقيقة الغائبة ، ولاتفسح هذه الحقيقة الغائبة عن غيومها إلاّ من خلال حديث مبتسم هادئ ، إلى مصغ متأمل هادئ ٠

لايكون من اليسر أن تحل هذه الحقيقة عليك إلاّ إذا بلغتَ مبلغا من استعداد لتلقيها وأنت متجه إلى مائدة حوار ، وعلى قدر رحابة استعدادك لتلقي هذه الحقيقة الغائبة من الطرف الذي تصغي إليه ، فإنك تستمد من تربتها ذات الاستعداد لتقول له حقيقة لم يكن يعلمها ٠

وهاهنا تورق شجرة تحاوركما الكريمة فتقطفا منها أينع ثمار وأنتما تحت سمع وبصر الله : / قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير / ١ ٠

/ فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا / ٢ ٠

/ قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا / ٣ ٠

هوامش

١ – سورة المجادلة – الآية ١

٢ – سورة الكهف – الآية ٣٤

٣ – سورة الكهف – الآية ٣٧

قـوة الأ فـكار

ثمة مقولة دارجة بقوة في الأوساط الشعبية تقول أن الكلمة الطيبة تُخرج الأفعى من جحرها ، هذه الأفعى التي لاتستطيع أن تخرجها بقوة كل أسلحة العالم ٠ وعندها يكون من الغباء التصديق بأن من يملك أن يصنع سلاما على الأرض بقوة السلاح ، يعجز أن يصنع هذا السلام بقوة الكلمة الطيبة ٠ الإنسان هو ابن الكلمة أكثر مما هو ابن أبيه وأمه ، الإنسان بدأ من الكلمة ، والربيع بدأ بكلمة ، وأنغام الكون بدأت بكلمة ٠

وغدا عندما تنطفئ مصابيح الكون ستبقى الكلمة حية كالماء لاتموت ، وتحمل الضوء والقوت من أجل إنسان جديد ٠ عندما يتم الحديث عن تغيير المجتمعات في منظومة / العولمة / فإن الكلمة الأولى تتجه نحو تغيير المناهج الدراسية ، لأن الكلمة هي التي تبني أي إنسان جديد وفق مفهوم جديد ، وكذلك هي التي تغير إنسانا قديما وفق مفهوم جديد ٠

ثمة كلمة قاسية تتجه إلى شخص فتقتله على الفور بقوة ألف قذيفة ، وثمة كلمة طيبة تُقال لشخص فتجعل قلبه يتراقص طربا حتى لو كان على سرير الاحتضار ٠

رغم كل تاريخ الحروب البشرية العالمية والإقليمية والأهلية والمحلية عبر التاريخ البشري فإنني لاأعثر على حرب واحدة استطاعت أن تؤسس لحالة من السلم ، بيد أنني أرى السلم في كل مراحل التاريخ يحل بالكلمة الطيبة ٠

لكن الإنسان يكون في عجالة من أمره لحلول حالة السلم فيلجأ إلى القوة في سبيل ذلك ، وأحيانا يكون الدافع الانتقام والثأر ، فالسلم بدون ثأر لايشفي غليل الذي يرى بأنه سيبقى مجروحا إن لم يردها بالمثل ٠ هنا سيكون قد حقق غايتين في آن معا ، فيفرح لأنه ثأر لجرحه من جهة ، ويفرح لأنه حقق حالة السلم بالقوة من جهة أخرى ، لكن هذا لايعني أن الإنسان القوي ليس بمقدوره أن يجلب حالة السلم بقوة الكلمة الطيبة أيضا ، أو كما يقال بقوة الدبلوماسية السلمية بما لايلحق إلا أقل الأضرار حتى لو دخل شيء من القوة وفق مراحل متدرجة ، إذ أن الحروب الفتاكة الكبرى دوما تكون خاسرة ٠ لقد عاش الإنسان طويلا وهو ينعم بدفء السلم الذي حققته الكلمة الطيبة ، في حين أنه عانى الويلات التي خلفتها عليه الحروب الطاحنة ٠ وليس باستطاعتي العثور على مرحلة زمنية من عمر البشر أنعمت فيها الحروب على الإنسان بنعمة الأمن ٠

إن قوة الأفكار كانت دوما تأتي لتقف إلى جانب الإنسان ، بينما قوة السلاح كانت دوما تأتي لتقف عليه وتسحق حتى أحلامه ٠ ولست أدري أي منطق هو الذي يجعل دعاة الحروب يرون بأ ن الناس يأمنون لمشاهدة تناثر أشلاء الإنسان في السماء الواطئة أكثر مما يأمنون لمشاهدة أسراب الحمام وهي تحلق بأمن وجمالية في الفضاء الذي بالأصل هو فضاء لتحلّق فيه الطيور الجميلة ٠

لست أدري أي منطق هذا الذي يقول بأنك تستطيع أن تجعل الناس يضحكون على أرض تتزلزل بالانفجارات ، وأي ضحك أسود هذا ٠ ثم تقول بأنهم سيحبّونك وأنت تزرع في قلوبهم الرعب ، وأي لون من الحب هذا ٠ البطولة

دوما تتحقق عندما يتمكن القوي من إزاحة الظلم بأقل خسائر ممكنة ، و أبدا فلن أصدق أن السلاح هو مستقبل الإنسان ، وأي مستقبل بدائي هذا ، ولكن الكلمة هي مستقبل الإنسان ، الكلمة الطيبة التي تعلن انتصارها حتى في أحلك الظروف ٠ عندما أقابل شخصا عزيزا فإن أول ما أسأله : ماذا تقرأ هذه الأيام ؟ وعندما يتحدث لي عن كتاب جديد ، أو حتى إعادة قراءة كتاب – كمثل تلك الكتب التي قرأناها في فترات سابقة وتحتاج إلى إعادة قراءة بكثير من تركيز حتى تكون متساوية مع المرحلة العمرية التي ندخلها – فأشعر بأن هذا الإنسان بخير مهما كانت ظروفه الأخرى متواضعة ٠

أما عندما يقول لي بأن أحواله كلها جيدة ولكنه منقطع عن القراءة ، فأشعر أنه ليس بخير وهو بكل المواصفات كائن ليس سعيدا قدر ذاك المتواضع الذي يقرأ كل يوم صفحة جديدة ، ولا أتردد أن أقول له أن كنوز العالم كلها لاتساوي أن تضيّع علينا يوما لانقرأ فيه ولو شيئا يسيرا قبل النوم بنصف ساعة في أسوأ الأحوال ٠

إنني واثق أن هؤلاء الأثرياء الذين تحيلهم ثرواتهم إلى نجوم في العالم لو علموا منافع ومتاع القراءة لتركوا كل شيء من أجل أن يجلسوا على ضفة نهر ، أو حتى في خيمة في صحراء ليقطفوا عناقيد الحكمة والمعرفة من جوف الكتب التي تحقق للروح ماتعجز كنوز العالم من تحقيقه ٠ إن كل كنوز العالم تعجز أن تهب سنة واحدة ، ولكنني واثق بأن ثمة كتبا قرأتها قدمت لي خمسين سنة من الحياة في خمس ساعات قراءة ٠ وعندها لاأملك من نفسي غير أن تكون شفيقة بذاك / النجم / الهاوي اللاقارئ ٠ولكن دوما أعجز لإيجاد الكلمة المضبوطة التي تتحمل المسؤولية الكبرى في تقديم الكلمة الطيبة ٠ وحتى في

الكتب السماوية كان وصف الكلمة يزيدها جمالا وقيمة ومعنى : / إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه / ١ ٠ / ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها / ٢ ٠

وهنا أذكر كيف أن شاعرا مثل الشيرازي * استطاع أن يؤثر بقوة الكلمة بروح الشاعر الألماني الكبير يوهان غوتيه ليغدو مريدا له وينشده قائلا : / ياحافظي الأقدس ياحافظي إن أغانيك لتبعث السكون ٠ ياحافظي الأقدس إنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطمة المتناثرة ، بهم جميعا أرجوك أن تأخذنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد بن عبد الله / ٠

إن قوة القرآن تكمن في قوة السلم التي تشرق بشمسه نفوس المسلمين وعندئذ تستيقظ الحواس بشروق الكلمة الأولى التي بدأ بها كتاب كبير بحجم القرآن ٠

لاأذكر أنه فاتني يوم لم أقرأ فيه شيئا جديدا ، وحتى لوكنت في الطرقات فإن رغبة القراءة الجامحة تلبث تطاردني فأقرأ الإعلانات ، أو أي شيء تقع عليه عيناي ٠ وأتقدم لأقرب مكتبة لأقرأ عناوين المجلات ، ثم أبتاع شيئا بحسب ما في جيبي ، حتى لوكانت جريدة يومية فقط ، مايهم أن اشتري شيئا جديدا يمكن قراءته ، لأن مشاهدة الإنترنت وقراءة عشرات الصفحات التي تكون بشكل يومي منه لاتروي ظمئي للقراءة المباشرة من الورق الذي أمسكه بيدي واستمتع بتقليب صفحاته ٠ هكذا فإن القراءة دوما تعزز حالة السلم لدى

* شمس الدين محمد بن بهاء الدين المعروف بخواجة حافظ الشيرازي ، شاعر شعراء لإيران الملقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار ، ولد في شيراز سنة ٧٢٥ هـ وتوفي سنة ٧٩٠هـ

القارئ وتوصيه : / وإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم / وأبدا ليست كل هذه الحروب بين الإنسان والسلاح ، بل هي بين كائن يقرأ وكائن لايقرأ ، فهي حروب بين السلاح والكلمة بالدرجة الأولى ، وأي طلقة تتجه إلى إنسان فإنها لاتتجه إلى جسده قدر ما تتجه إلى كلمته وأجري خلف نفسي إلى درجة التصديق بأن أي سلاح في العالم لا يتجه إلى من به بكم ٠ لقد كانت كل آمال النبي معقودة على قوة الكلمة التي بمقدورها أن تجعل الإنسان محبا للإنسان ونازعا من قلبه كل مشاعر العداوة والبغضاء تجاه نفسه وتجاه الحيوات جميعا . هنا سأقتطف بعض التوصيات التي أوصى بها النبي في سعيه لنشر ثقافة الكلمة / القوة / في الناس وعلى مختلف مراحل الدعوة :

١- (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) مسلم (وإن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) .

٢- (ألا أنبأكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) قالوا بلى . قال : ذكر الله تعالى) الترمذي .

٣- (كل معروف صدقة ، والدال على الخير كفاعله) البخاري ، مسلم

٤- (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا) مسلم

٥ - (أن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابين بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي) مسلم

٦- (ما من مسلم يعود مسلما مريضا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ، وإن عاد عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة) الترمذي .

٧ – (من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القايمة حتى يخيره من الحور العين ما شاء) الترمذي .

٨- (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : (سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك) إلا غفر الله له ما كان مجلسه ذلك) الترمذي

٩- (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده ، حتى تخرج من تحت أظافره) مسلم

١٠- (ما من عبد يذنب ذنباً ، فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله إلاغفر له) أبو داود

١١ – (ألا أخبركم برجالكم في الجنة ؟ بلى يا رسول الله ، فقال: النبي في الجنة ، والصديق في الجنة ، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر ، لا يزوره إلا في الجنة) الطبراني حسن .

لقد جاء الإسلام ليحقق السلم في الناس والأرض بالمسلمين ، وكل مسلم هو رسول من رسل السلام على الأرض ، إنه يحمل رسالة الإسلام

، وعلى قدر ما أنت سلم في الناس وفي الأرض فأنت مسلم ، وعلى قدر ماأنت حرب في الناس وفي الأرض فأنت باق في ظلمة جاهليتك الأولى لم تسطع عليك شمس الإسلام ولو أدركك يوم القيامة . ليس من الإسلام أن تنظر إلى عدوك على أنه كائن نجس لايحل لك ملامسته والتحاور معه لأنك بفعلك هذا تغلق باب السلم معه وتترك باب الحرب مشرعا مابقيت الحياة ، ولكن من الإسلام أن تنظر إلى إمكانية التسالم معه فتنظر إليه وكأنه ولي حميم حتى لو نظر إليك بأنك عدو لدود ، وستكون رسولا جيدا من رسل الإسلام على قدر ماتترك في نفسه أثرا من قوة السلم الذي أرسلك به إسلامك ، فأن تجعل شخصا واحدا يشرق صدره للإسلام خير عند الله من أن تجعل العالم كله يسلم على يديك بقوة الترهيب .

مراجع

١ – سورة فاطر – الآية ١٠

٢ – سورة إبراهيم – الآيتان ٢٤– ٢٥

لذة معرفـة الحقيقـــة

ثقافة الإسلام في جزء جيد منها تدعو المسلمين لأن يسعوا جهد أيمانهم حتى يتمتعوا بأكبر مساحة من قوة الحقيقة تلقيا وإرسالا ، وتبين هذه الثقافة للمسلمين بأن صفحات القرآن تسطع وتلبث ساطعة على قدر ماتفيض بقوة الحقيقة ٠ فالله الذي هو الحقيقة العظمى والذي هو القوة الساطعة العظمى يقول للناس الحقيقة كلها وهو بذلك يكون أكثر قربا من الناس وأكثر وضوحا وبالتالي أكثر قوة ٠ فالمسلم إن رغب أن يعرف تاريخ أجداده بنجاحاتهم وإخفاقا تهم ، بهزائمهم وبطولاتهم ، بخزيهم وبعارهم ، لايجد أصدق من صفحات القرآن التي تقدم الحقيقة كلها حتى وهي تسبب بعض الإحراج لبعض الأنبياء ولبعض الرسل والمخلصين ٠

وبهذا فإننا نقول بأن الله أكبر وأقوى من أن يواري الحقيقة عن الناس ، ومادام قد شاء أن يسويهم بيديه وينفخ فيهم من روحه فإنه يُظهرهم على كل الحقائق عن ذاته وعنهم وعن مخلوقات أخرى ٠

وعلى ضوء هذه الحقيقة الساطعة يمكن لنا أن نتأمل قوة الشعوب والأمم ٠ فالشعوب التي تتمتع بأكبر مساحة من الحقيقة ، هي الشعوب التي تمتلك أكبر مساحة من القوة في العالم ، وتكون لها الأولوية في كل مقومات الحياة ، تكون لها الأولوية بالاقتصاد ، الأولوية بالأفكار ، الأولوية بالسلاح ، الأولوية

بالطب ، الأولوية بالآداب والعلوم والفنون والتكنولوجيا ، الأولوية في ممارسة الحرية ٠

ثم تليها شعوب الدرجة الثانية ، وتليهما شعوب الدرجة الثالثة ٠ وقد تم تصنيف شعوب الأرض وفق ماتتمتع به من قوة الحقيقة ٠ فيُقال عن أبناء شعب بأنهم الأوائل ، ثم يُقال عن أبناء شعوب بأنهم من الدرجة الثالثة ، أي أنها ماتزال تنمو ، منذ ولادة آدم وحتى الآن ماتزال قيد النمو ولم تبلغ مرحلة النضج ، وهؤلاء الأوائل يعتبرون أنفسهم أوصياء على هؤلاء الذين هم مازالوا قيد النمو والذين مازالوا دون سن الرشد ٠ وكثيرا مانقرأ في وسائل الإعلام عن أنهم لايجوز أن يدعوا أسلحة بأيدي هؤلاء الذين يعتبرونهم في مرحلة الطفولة العقلية خوفا عليهم وعلى الشعوب الأخرى لأن هذه الأسلحة سوف تؤذيهم وتؤذي الشعوب الأخرى ، بينما يجيزون لأنفسهم وهم الأوائل أن يكونوا دولا نووية تمتلك أفتك الأسلحة لأنها بلغت مرحلة النضج وسوف لن يستخدموا هذه الأسلحة بحق أبنائهم ولا بحق أبناء الشعوب الأخرى ، وعلى هذا فترى هذه الشعوب تقول عن نفسها بأنها من الدرجة الأولى أو من الدرجة الثانية أو من الدرجة الثالثة ، إنها صناعية ناضجة ، أو أنها على مشارف النضوج ، أو أنها ماتزال في مرحلة النمو ٠

فالناس لايحتاجون إلى الأسلحة حتى يكونوا أقوياء على قدر مايحتاجون إلى قوة الحقيقة ، ويمكن ملاحظة أن ثمة محاولات من أبناء العالم الثالث تنحو نحو الحقيقة وتحقق خطوات جيدة في مسألة الحريات العامة وحقوق الإنسان والإعلام واستقلالية القضاء ٠

وهذه المحاولات تؤتي أوكلها فترى هذه المجتمعات تنفتح في مجالات الفنون والآداب والعلوم والإعلام وتنظيمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان ، وترى شمس الحقيقة تبدد ظلمات الناس فتشرق نفوسها على دفء وحيوية الحياة ٠ الإنسان يتفاعل بصورة يومية وساخنة مع الاقتصاد فيكون محرّكا لجزء من الاقتصاد في بلاده وفي العالم ، ويكون متفاعلا مع السياسة فتكون له مواقفه السياسية في سياسة بلاده وسياسة العالم ، ويتفاعل مع الثقافة والمعرفة كضرورة أساسية لتطوير الواقع وإمكانية النظر نحو المستقبل ٠ تكون له علاقة مستمرة مع تفاعلات الحياة ولايكون مهمشا بسبب فكرة أو قول أو موقف : فما الذي لديك ، هذه وسائل إعلامنا مفتوحة لتقله ، ألم يفتح رب العزة صفحات القرآن أمام الشيطان ليقول مايشاء ، أنا لستُ إلها وأنت لست شيطانا ٠

تكون المجتمعات ساطعة على قدر تمتعها بقوة الحقيقة وليس ثمة ظلمة أبلغ من ظلمة الرياء ٠ يمكن لك أن تدخل بيتا مؤلفا من ستة أشخاص فترى كل شخص بالنسبة للآخر هو عالم من الغموض رغم أنهم يعيشون تحت سقف بيت واحد ، ترى الزوج يمضي ثلاثين سنة مع زوجته وهو يواري عنها الأساسيات الكبرى التي تُبنى عليها الحياة الزوجية ، ترى الأخ يمضي مع أخيه عمرا وهو يواري عنه الأساسيات التي تُبنى عليها روابط الأخوة ، فيكون من البديهي أن يكون النقص في العلاقات الزوجية ، والعلاقات بين الآباء والأبناء ، وبين الأصدقاء ، وبين الأقرباء والجوار . إنها علاقات تفتقر إلى روح وحميمية الحقيقة التي تؤسسها .

على قدر مايعرف الإنسان الحقيقة ، يمتلئ شعورا بالمسؤولية تجاه ما عرف ، ويشعر بقوة الارتباط بالواقع الذي يعيشه وهو مدرك بحقائقة ، ولذلك فإن الذين يمتلئون بقوة الإيمان بالله هم الذين امتلئوا قوة بمعرفته ، وكان ذلك شأن الأنبياء ، وشأن ورثتهم من بعدهم ، وقد ورد في القرآن : / إنما يخشى الله من عباده العلماء / . وحتى لوكان الله هو الذي يخشى العلماء – وهذا مالايوافقه المفسرون – فإن الخشية على ماأرى ليست خوفا على قدر ماهي تكريم وتقدير واصطفاء ومحبة من الله لورثة الأنبياء الذين هم العلماء الذين وردوا في هذا النص ، كما أن عبارة / ويمكر الله / لاتعني / ويحقد الله / على قدر ماتعني أن الله يرد على الذي يمكر بمثل مامكر ، أي يرد إليه مكره إذا شاء ذلك ، وإن شاء عفا عنه لأنه جل وعلا / خير الماكرين / .

تسطع أنوار القرآن في صدور الناس على قدر هذه الحقائق التي يرونها فيه ، فالقرآن هنا هو كتاب حقيقة بامتياز ، ومن هذه الحقيقة يأخذ مكانته المحببة في قلوب الناس ، ومنها ينظرون إليه نظرة تقديس .

ودوما فإن القرءات المتعددة هي التي تفتح آفاق المعرفة في الناس ، فالآية التي قرأتها مائة مرة ، عندما تقرأها مرة أخرى تشعر بأنك تقرأها أول مرة ، وتعلم منها مالم تكن علمته في المرات المائة السابقة ، وكذلك تُحسسك هذه الآية بحلاوة لم تُحسسك بها في المرات المائة الفائتة . ولذا فإن المعتاد على قراءة أو سماع القرآن ليس باليسر عليه أن يتركه ، وهو يستطيع أن يميز بين حالته وبين حالة الإدمان ، فهو مهما طال به الوقت في قراءة وتأمل القرآن لاينتابه أي شعور بالإثم عندما ينهض منه ، وعلى العكس فإنه يشعر بقوة ذاته وبسطوعها ، بينما يرى المدمن يشعر بحالة دائمة من الإثم وتوبيخ الذات

والوهن النفسي . هنا يميز مداوم القرآن نفسه عن المدمن ، فالمواظبة على أعمال الخير هي حالة من القوة بنظر الذات وبنظر الآخرين .

الأمر الآخر الذي أرى أن أضيفه إلى جملة هذا الحديث هو أن المجتمعات التي تعتاد فيما بينها على مواراة الحقيقة ، فإن هذا التراكم الزمني من اللاحقيقة في الناس ليجعلهم ليكونوا ضحايا الحقيقة وضعفاء كل الضعف أمام شمسها ، فالفرد هنا لايجسر على سماعها من أفواه الآخرين ، لأنه لم يكن يجسر على قولها لهم ، وسيغدو مجرد السماع للحقيقة حالة من تقبل الخزي بالنسبة إليه . ولذا ترى على الأغلب أن الناس في المجتمعات المنغلقة يعلمون الحقائق ولكن يظهرون بأنهم لايعلمونها ، ويتحاشون التواجد في الأماكن التي يريبون بأنهم سيسمعونها ، وإن تواجدوا تحت ظرف طارئ فإنهم ومع بدء قول الحقيقة من الغير ، ينسحبون من ذاك الجمع تجنبا من أن يعرف الآخرون بأنهم كانوا على علم بتلك الحقيقة ، وهذا يحدث في مستويات وشرائح مختلفة .

مواراة الحقيقة هي إشارة أولى من إشارات الوهن ، فلا يمكنك أن تعبر عن قوتك إلا عبر جرأتك في قول الحقيقة وجرأتك في الإصغاء لها ٠ يمكن لك في كل يوم أن تدرب نفسك على قول الحقيقة وتدرب نفسك على سماعها ، أن تغسل لسانك بنور قولها ، أن تغسل سمعك بنور سماعها ، أن تغسل عينيك بنور رؤيتها ، أن تغسل ذهنك بنور التأمل في فضاءاتها . لقد كان النبي صادقا أمينا يقول الحق ويسمعه أينما وقع ومن هذه الحقيقة استمد قوة سطوعه وقوة إشراقه على عصور العالم من بعده ، وأفضل ما يمكن لك أن تفعله هو أن تأتسي به ، واعلم أن الذين يدخلون الجنة هم أولئك الذين قالوا الحقائق الكبرى وليس الذين أخفوها ٠ تكون إنسانا طبيعيا وتستمتع بممارسة فطرية

الطبيعة الإنسانية وتحقق لنفسك أكبر مساحة مضيئة من ممارسة حقيقة إنسانيتك على قدر رغبتك في معرفة الحقيقة المضيئة ، معرفة حقيقة أنك في موقفك ذاك كنت على خطأ ، معرفة حقيقة أنك في موقفك ذاك كنت على صواب ٠ وهذا شكل من أشكال المعرفة ، معرفة حقيقة ماتقوم به ، معرفة مايحدث من حولك وأنت جزء منه ٠ ودوما فإن عليك انتظار النتائج لأن لاأحد بوسعه أن يخبرك عن الحقيقة إن لم تُظهرها لك النتائج ٠ وهنا وأمام روح الحقيقة يتحد الخطأ في الصواب ويغدو الخطأ في نتيجته كالصواب مادام يحمل إليك معرفة روح الحقيقة الخافية ويقينها ٠ عليك دوما أن تسعى لأن تعرف ماهي الحقيقة ، وكلما علمت جزءا من هذه الحقيقة أضاء لك مساحة مظلمة من ذاتك ماكنت تبصرها بنظرك أو بحواسك ٠ وعلى هذه الأرض الخضراء الثرية يمكن لك أن تدرك أن لذة معرفة الحقيقة تفوق لذة عدم مواجهة الفشل الذي لاتُظهره لك الحقيقة ، ولذة معرفة الحقيقة تفوق لذة عدم معرفة النجاح الذي لاتُظهره لك الحقيقة ٠ إذن أنك فشلت وتعلم حقيقة أنه لم يحالفك النجاح في أمرك ذاك ، وهذا أجدى من أنك فشلت وتجهل حقيقة أنك فشلت ، أو أنك نجحت وتخفي عنك الحقيقة أنك نجحت .

إشـراقـــة المحبـــة

دومـا وفـي كـل وقـت تلبـث إشـراقة المحبـة متقـدة فـي قلـب المـؤمن ، وهـي إشـراقة تلبـث متقدة وتـزداد نـورا فـي قلبـه يومـا إثـر يـوم ، ولـذلك تـرى المـؤمن يمضـي في طريقه ونور إيمانه بين يديه ٠ ينظر ابن القيم الجوزيـة إلـى تسعة أبواب تعزز محبة الله لدى الإنسان ، وما إن بلغ مرحلة متقدمة من محبـة الله ، بلغ مرحلة متطورة من محبة الناس ، ومحبة الحياة :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبـر والتفهم لمعانيـه وما أريـد منــه .

الثاني : التقرب إلى الله بالنـوافل بعد الفرائض ، فإنها توصله إلى درجـةالمحبوبيـة بعد المحبـة .

الثالث : دوام ذكـره على كل حـال باللسـان والقلـب ، والعمل والحـال . فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر .

الرابع : إيثـار محابـه على محابك عند غلبات الهـوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائـه وصفاتـه ومشاهدتها ومعرفتـها . فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة .

السادس : مشاهدة بره وإحسانـه وآلائـه ونعمـه الباطنـة والظاهـرة ، فإنها داعية إلى محبتـه .

السابع : وهو من أعجبها ، انكسار القلب بكليتـه بين يدي الله تعالى .

الثامن : الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية ثم ختم ذلك بالاستغفار.
التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم .

عندما نزل الإسلام على الناس نزلت معه إشراقته ، هذه الإشراقة التي جعلت المسلمين الأوائل يوما بعد يوم قوة محبة عظمى في العالم ٠ فانظر إلى النبي يوصي أن يشرق الجار على جاره قائلا : / إن مرض عُدته ، وإن مات شيعته ، وإذا استقرضك أقرضته ن وإذا افتقر عدت عليه ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيته ، ولاتستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولاتؤذه بقتارة ريح قدرك إلا أن تغرف له منها ، وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولايخرج بها ولدك ليغيظ ولده / ١.
ثم : / إذا طبخت مرقا فأكثر ماءه ، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف / ٢ .
إذا أتيح لنا أن ننظر إلى سلسلة الانتصارات التي حققها المسلمون منذ فجر الإسلام ، سيكون أمامنا أن نرى إشراقة المحبة هي التي كانت دليلهم إلى كل تلك الانتصارات الهائلة أكثر مما كان دليلهم السيف ، هذه الإشراقة التي كانت تزداد نورا في قلوبهم كلما حققوا انتصارا جديدا في كفاحهم من أجل نشر رسالة الله الجديدة في رحاب أرضه ، فكان المسلمون رسل محبة يغرسون غراس المحبة في كل بقعة أرض تطأها أقدامهم ٠ لقد تركوا صفحات مشرقة حتى في نفوس أبناء تلك الديار التي دخلوها وأناروها بأنوار المحبة وقد علموا بأنهم

قدموا إليهم ولم يقدموا لبلادهم ، قدموا من أجل إبلاغ رسالة الله للناس ولم يقدموا من أجل ثروات البلاد ، فالمسلم يذهب إلى أفقر بقاع الأرض بحثا عن الإنسان لإبلاغه هذه الرسالة كما يذهب إلى أغنى بقاع الأرض . صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : / مامن رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا دعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثله / .

إنها مرآة التاريخ الإسلامي الساطعة التي مهما نظرنا ونظر غيرنا فيها فإن هذه الأنظار لاتقع على انتهاكات لحقوق الغير ، أو مواقف نشمئز منها ، أو ننكس رؤوسنا ونحن ننظر فيها ٠ لقد حرص هؤلاء أن يتركوا المرآة بكل نقائها ٠٠ المرآة الأمانة التي سوف يتوارثها المسلمون ليردفوا بها مسيرة إشراقة الإسلام في أرض الله . إننا ونحن ننظر اليوم في مساحات هذه المرآة ينتابنا الفخر والاعتزاز لمواقف أجدادنا أولئك من الصحابة والخلفاء الراشدين المهديين ، والتابعين ، والتابعين التابعين ٠

ولكن حل دهر على مسيرة الإسلام قدم فيه قوم ينظرون إلى يومهم أكثر مما ينظرون إلى غدهم ، ينظرون في مرآة أنفسهم أكثر مما ينظرون إلى مرآة تاريخ الإسلام ، يحملون السيف في أيديهم وفي قلوبهم وقد غُلت أفئدتهم بالحديد وانطفأت إشراقة الإسلام في قلوبهم وفي وجوههم ، ينظرون إلى عباد الله في أرضه وكأنهم ينظرون إلى شاة موبوءة حان ذبحها ، فانقلب السحر على الساحر وغدوا كطرائد موبوءة يلحقها الآخرون في المخابئ بسيوف مسلولة ٠

ليس بوسعنا أن نفعل شيئا دون أن ينير الحب دروب أقدامنا ودروب أفئدتنا ، لن يكون الإنسان قويا إلا إذا أشرق بنور المحبة ، ونور الأخوة الإنسانية ،

ليس بوسعنا أن نسترد قوتنا التي خسرناها في حروبنا الخاسرة مع بعضنا البعض بالدرجة الأولى إلا عندما تكون طاقة التسامح في نفوسنا أعلى من طاقة العقاب ، عندما نحب بعضنا البعض ونحب الآخرين كحبنا لبعضنا البعض ، عندما ننظر بأن النصر لن يكون بقوة السيوف ، و فقط الموت ٠٠ ولاشيء غير الموت يكمن لنا ولغيرنا في ساحات السيوف ٠

لن يكون بوسع الإنسان أن يكون قوة عظمى في العالم إلا إذا كان قبل ذلك محبة عظمى في العالم ٠ إن المسلم يحقق شعائر دينه قدر تفاعله مع أفراح وأحزان الناس من حوله الذين هم من ملل وعقائد وأديان أخرى ، ويكون مقصرا في تحقيق شعائر دينه كلما يجعل نفسه وأهله في قطيعة وعزلة عن إخوانه هؤلاء ، لايفرح لفرحهم ولايحزن لحزنهم ، أو يفرح لحزنهم ويحزن لفرحهم ٠ ويسعى إلى قطع كل صلة معهم ، فلا سلام ، ولا حديث ، ولا صداقة ، ولاشراكة عمل ، ولازيارات ، ولاشراء حاجة منهم ، أو بيع حاجة إليهم ٠ إن الإسلام يدعوك لأن تدخل بيوت أهل الكتاب وتأكل من طعامهم وتشرب من شرابهم وتلجأ إلى بيوتهم بحثا عن أمن ، وتصاهرهم ، وإذا كانت امرأتك من أهل الكتاب تأخذها إلى الكنيسة حتى تؤدي شعائر دينها وتعيدها إلى بيتك ، ثم توفر لها أن تصوم صيامها ، وتصلي صلاتها وتقرأ إنجيلها في بيتك ، وكذلك لايجوز لك أن تنهاها من زيارة أهلها ، أو تأخذ أولادك لزيارة جدتهم وجدهم أو خالاتهم و أخوالهم من أهل الكتاب وعليك أن تقوم معها بهذه الزيارات وتقوم معها بزيارات الأعياد والتعازي ، وتفتح بيتك لاستقبالهم وتكريمهم كما هي تقوم معك بهذه الحقوق في أهلك الذين هم ليسوا من دينها ، و دون أن يكون لك الحق أن تفرض عليها أن تقرأ كتابك أو تصلي صلاتك

أو تصوم صيامك ، أو يحول ذلك بينها وبين حبك لها ٠ روى الإمام أحمد في مسنده : حدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم صلي أمك ٠ لقد جاء الإسلام ليفتح كل أبواب المحبة التي كانت مغلقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ويغلق كل أبواب البغضاء التي كانت مشرعة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وليقول للناس أجمعين بأن الكرة الأرضية هي بيت الإنسانية كلها في عائلة بشرية متحابة ، وليست العبادات وحدها هي التي تحبب الناس إلى الله ، بل المحبة والتسامح والسخاء ٠ يبيّن نبي الإسلام في قوله : / لشاب مرهق في الذنوب سخي أحب إلى الله من شيخ عابد بخيل / ويبيّن : / إن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ما يجدها عاق ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان / . إن الناس جميعا لهم حقوق على بعضهم البعض ، حقوق أن يحسنوا إلى بعضهم ، وحقوق ألا يبغضوا بعضهم ٠ حقوق أن ينفتحوا على بعضهم ، وحقوق ألا ينغلقوا عن بعضهم وذلك حتى تتحقق الأخوة الإنسانية بينهم في أعلى مراحلها ٠

فأنت وفي أي بقعة من ديار الأرض ومن أي دين أو لغة أو عقيدة كنت تقيم بهجة في بيتك بمناسبة يبتهج فيها العالم كله ، ولعلها مناسبة عيد العمال في العالم ، أو عيد المحبة ،

أو هو يوم مولد نبي من أنبياء الله ٠ فأنت لاتبتهج للدمار ، أو للعداوة ، أو لمولد شخص شرير ٠ والبهجة هي أن تأتي لأهلك بطعام طيب ، أو يأتي

أهلك لك بطعام طيب وفاكهة وحلويات ، أو أنك تقدم وردة لزوجتك أو لعلها خطيبتك وتقول لها كلمة طيبة في يوم المحبة ذاك ٠ إن المسلم وهويشارك العالم بعالمية المناسبات ، يحقق شعائر دينه بسعة أفق هذا الدين وتفاعله تفاعلا مباشرا مع نبض العالم ، يتأثر به ويؤثر فيه وأنه ليس جسما غريبا عنه ٠ ويثبت مجددا بأن الإسلام ليس دعوة للعزلة والانغلاق والتقوقع في كهف من كهوف مكة ، على قدر ما هو انفتاح وتفاعل ومحبة وإشراق على العالم كافة ، وأن المسلم لايكون مسلما إلا قدر انفتاحه على الأرض وسيره في مناكبها ، وأن المحلية المغلقة ليست سوى موت وانطفاء للإسلام والمسلمين معا .

ليس للإنسان غير المحبة حتى يستطيع أن يعيش حالة توازن وازدهار في مجتمعه ، وإذا نظرنا إلى إيقاعات حياة المجتمعات المتقدمة في العالم ، سيجلو لنا بأنها مجتمعات متعاضدة متحابة فيما بينها بالدرجة الأولى وأن راية المحبة فيما بينها تعلو كل الرايات ، هذه الراية التي تجعل كل فرد من أبناء هذا المجتمع مهما كان لونه أو لسانه أو معتقده يشعر بحالة عائلية كبرى نحو المجتمع الكبير الذي ينتمي إليه . فالمجتمع الذي يعيش فيه هو عائلته الاجتماعية والانتمائية الكبرى لايقل حميمية وانتمائية عن عائلته الصغيرة في بيته الصغير . إنه يشعر بالقوة على قدر قوة تماسك أفراد هذا المجتمع وتعاضدهم وتحابهم ، هذه القوة التي هي الوحيدة الكفيلة بتصدي هذا المجتمع لأعتى الرياح . ولذلك فقد رأينا عبر التاريخ البشري بأن الدول التي تريد أن تؤذي أو توهن دولا ، فإنها أول ماتفعل هو العمل على جبهة التفكك الاجتماعي والتآلفي في النسيج الاجتماعي لتلك الدولة الآمنة ، وكلما استجاب

المجتمع لهذه الشرارات كلما أحست تلك الدولة بنجاحها في هذه المهمة ، وكلما تصدى المجتمع وأطفأ كل شرارة أتته ، تراجعت تلك الدولة عن مساعيها وعلمت بأن جهودها مهما بلغت سوف تذهب سدى . ولابأس أن نلقي نظرات إلى الوقائع التي عاشتها دول العالم ولنتعلم من بعضنا البعض ، لننظر إلى تاريخ الحروب الأهلية في كل بقاع العالم ، عندما كانت المجتمعات تستجيب للشرارات اللونية واللغوية والقومية والإيديولوجية وكانت تدفع أثمانا باهظة ، لننظر إلى فرنسا أمريكا وإسبانيا وروسيا لنرى بأن الاستقرار لم يكن يتم إلا عندما رفضت تلك المجتمعات الحروب الأهلية فيما بينها – بعد أن دفعت تلك الأثمان الباهظة التي ليست لدي رغبة أن أذكر أعداد ضحاياها وأحجام الخسائر الكبرى التي منيت بها – ورفعت راية المجتمع المتحاب الواحد ضمن الدولة الواحدة . لقد تحولت تلك المجتمعات الكبرى إلى جحيم لايطاق لأن الأخوة أصبحوا يفتكون ببعضهم البعض في الشوارع لمجرد الاختلاف الفكري أو المعتقدي أو اللغوي . لقد تحولت تلك المجتمعات في مراحل الاضطراب تلك إلى غابات . ولكن الأدب بتقديري استطاع أن يلعب دورا بارزا في ترسيخ حالة المحبة مجددا في الناس ويمكننا الاطلاع على أعداد هائلة من الأعمال الروائية والقصصية والمسرحية والشعرية والفكرية التي نهضت بالمجتمعات وأسست لحميمية جديدة . وبدأت الدول أيضا تعيد حساباتها وتعمل في ترسيخ هذه الحميمية الاجتماعية الجديدة ، فأنت مهما كنت لاتوجد بينك وبين دولتك تصفية حسابات ، لأنها تمنحك كامل حقوقك عليها ، ولاتضطهدك في معتقدك أو لغتك أو لونك أو دينك ، إضافة إلى فتح الأبواب لكل داخل من أي مكان من الأرض ليتجنس بجنسيتها وينتمي إلى

تلك المجتمعات المتحابة المفتوحة . فأمريكا التي هي أقوى دولة على سطح الأرض بقوتها وتقدمها وآدابها وفنونها،لم تكن قادرة على أن تكون كذلك لولا استعانتها بإمكانات وطاقات ومواهب الآخرين من مختلف الأديان واللغات والأعراق البشرية على سطح الأرض ، بحيث استطاعت أن تكون دولة عالمية بامتياز لأن الذين يعيشون فيها ويتمتعون بجنسيتها من شعوب أخرى يفوقون أعداد الأمريكيين الأصليين ، وإذا شاء هؤلاء جميعا وتركوا أمريكا واستقروا في أي صحراء سوف يحيلونها إلى قوة كقوتهم هذه . وها نحن نضطر لدفع ضريبة العولمة وضريبة الانفتاحات الجديدة التي تم فرضها علينا دون أن نملك أدنى الاستعدادات لدخولها ، وليس ثمة مخرج آخر غير أن نواجه هذه المستجدات ونضعها على موائد الحوار الاجتماعي . كنت أرغب في أن أنتهي إلى القول بأن علينا جميعا أن نسعى للتخفيف من حالة الأمية التعليمية والتثقيفية بالدرجة الأولى لمجتمعاتنا ، وأن نخفف من القيود الاجتماعية على المرأة وعلى فئة الشباب على الأخص ، وأن تتاح لهؤلاء الفرص الميسورة للدراسة واكتساب المهن والسفر ، ويتم العمل على تعزيز روح عائلية المجتمع المشتركة فيهم نحو حالة عامة من التخفيف من الوصاية الأبوية والوصاية السياسية والوصاية الدينية ، إذ ليس مطلوبا منا أن نقدم أجيالا ملائكية خالية من الأخطاء ، فالجميع يخطئ والدين يتسامح ، والأب يتسامح ، والدولة تتسامح ، والمجتمع يتسامح .

يمكن لأي فرد أن يبدأ حملة التكاتف الاجتماعي المشرقة هذه ، فأن تذهب لشراء غرض ، تشتريه من شخص مخالف لك ، سواء في الدين أو اللغة أو الايديولوجيا ، وهو يقوم بالفعل ذاته عندما يراك كذلك ، ثم يتسع هذا ليشمل

العمـل والتجـاور والتصـاهر والعلاقـات الاجتماعيـة . وأمـام هـذا الـتلاحم الاجتمـاعي الكبيـر يكـون المجتمـع متأصـلا فـي تربتـه حتـى لـو هبـت عليـه عواصف العالم ، ولعلنا رأينا شيئا كهذه في بعض الدول المتقدمة الكبرى وهي تتعرض لعواصف كبرى هزت العالم برمته وكانت هذه العواصف تهدف أول ماتهدف إلى حدوث شرخ في تلك المجتمعات الكبرى ، إلا أنها فشلت في أن تجعل تلك المجتمعات تنزف فيما بينها في حروب أهلية عندما عبرت تلك المجتمعات بأنها غدت أكبر من أن تستجيب لشرارات كهذه . وهذا أثبت مجددا بأن الوحدة الاجتماعية كفيلة بصمود أي مجتمع مهما كان صغيرا وفي وجه أعتى ريح ، والتفكك الاجتماعي كفيل بانهيار أي مجتمع مهما بدا كبيرا وأمام نسمة صيف . إن الناس هم الذين ينعمون برخاء الإستقرار والتحاب والتآلف ، وهم الذين يدفعون ضرائب العداوة والبغضاء والاضطرابات .

وعلى مر العصور فإن الأنظمة تأتي لتؤدي دورها وتذهب ، تمر مرور الكرام من حقبة صغيرة في ديمومة المجتمع ، المجتمع الذي هو الثروة الوطنية المفتوحة التي لانهاية ولاحدود لها ، المجتمع الذي هو مَلَك الدولة وهو سيدها الأوحد وهو مستقبلها .

ثمة نسيج اجتماعي متداخل ليس بوسع أحد أن يفككه ، وفي النهاية وبعد دهر من حروب أهلية ونزيف داخلي فإن المجتمع لايجد غير أن يركن إلى بعضه البعض لأنه يكتشف بأن بيتا واحدا لايشكل مدينة ، وأن لغة واحدة لاتصنع مجتمعا ، وأن قوما واحدا لايقدم حضارة ، وأن إيديولوجية واحدة لاتطلق حرية .

مراجع

١ - رواه الطبراني
٢ - رواه مسلم

عويل المخيلـة

منذ اليوم الأول الذي يفتح فيه المولودعينيه في العالم الذي صُنف ب / الثالث / وحتى يبلغ سن الشيخوخة تتقاذفه أشكال القمع والانتهاكات لتفاصيل حياته الشخصية ضمن دائرة المجتمع والدين و السياسة ٠ وهو كلما يهرب من سلطة تتلقفه سلطة أخرى أشد قسوة فيمضي حياته لاهثا إلى درجة أن ينتهي بأن يقنع نفسه بهذا الواقع ويبقى الخيال فسحته الوحيدة التي يحقق من خلاله لحظات من ممارسة الحرية إلى أقصاها ٠ ففي سنوات الطفولة الأولى يرغم عليه أبواه توجيهاتهما الصارمة فيفعل مايريده الأبوان منه دون أن يتمكن من فعل مايريد ، وإن مال إلى شيء من حرية واستقلالية انفجرت في وجهه صرخة ،وإن لم يرتدع لحقتها صفعة لتعيده بالقوة إلى الرتل ٠ ثم يأخذه أبوه معه إلى الجامع ليسمع بنفسه من الفقهاء التهديد والوعيد الإلهي وأهوال القبر وسعير النار ٠ فيتولد في نفسه خوف هائل من مجرد الموت فقط حتى لايذهب إلى عقاب السماء – ولعل هذا الخوف الهائل بذاته هو الذي يدفع بالبعض لمواجهة هذا الموت بكل قسوة وعنف لأنه في هذه الحاال ينقذ نفسه من الموت البطيء ، وكذلك من ويلات الاحتضار ، ومن حالة الخوف العامة المستبدة به – وعندما ينفتح قليلا يستقبله سياط المعلم في المدرسة ، فهو إن تأخر قليلا عن المدرسة تلقى على كل دقيقة تأخير عصا على يديه ، وإن فاته أن يكتب درسه بشكل جيد امتدت أنامل المعلم لتشد أذنيه ووقعت على وجهه

كفاه ، ووقعت على سمعه عبارات التقزيم والإهانة أمام زملائه الأطفال في الصف ٠ وعندما يتجاوز ذلك تتلقفه ثكنات الجيش ليمضي ردحا من العمر وهو يتلقى أقسى أشكال التدريب على مختلف أنواع السلاح ليستطيع أن يقف أمام / العدو / فيرديه قتيلا ، وعليه أن يعوّد نفسه على تحمل البرد والجوع والعطش والإرهاق حتى إذا وقع في أيدي العدو تحمل ألوان المعاناة بصمود ٠ يمر به العمر ويعزّي نفسه بأنه سوف يتحرر غدا ويفعل مايريد ، وبالفعل ينتهي من مرحلة الجيش ويعود إلى حياته المدنية والسعادة تبدو عليه ، لكنها ومنذ لحظاتها الأولى تصطدم بواقع أنه يحتاج إلى الاقتران بامرأة تشاركه الحياة ، ثم أن الأهل يريدون له الفتاة التي اختاروها له ، أما التي يريدها هو فهي لاتناسب طبيعة العائلة ، وإن أصر إلى ذلك سوف يتخلى عنه الأبوان والعائلة كلها فيرى نفسه منعزلا منبوذا على رصيف الحياة كطير كُسرت جناحاه ٠ إذن مادام العمر الماضي كله مضى بالتنازلات فعليه أن يبتلع هذه أيضا ، وربما بعد مدة عندما ينمو له جناحان جديدان سيستطيع أن يتخذ القرار الذي يبتغيه ويتزوج المرأة التي يبتغيها ، فما زال في العمر متسع وعليه ألا يكون متسرعا حتى يقطف ثمار تحمله ٠ يرى هذه الرجل بأنه غدا زوجا وزوجته على وشك أن تضع مولودا وهذا الأمر يحتاج إلى دخل مستمر ليستطيع أن يعول أسرته ٠ تبدأ رحلته الشاقة الجادة للبحث عن فرصة عمل حتى يجدها في إحدى الدوائر ، وهنا يتفاجأ بقمع مديره له ، فهو لايكون رأي إلا ما رأى المدير وحتى لو كان رأيه الصواب ورأي المدير الخطأ ، فعليه أن ينفذ ويتعلم كيف يصمت ويسمع كلام مديره إذا أراد أن يحافظ على لقمة عيشه ٠ فما الذي يفعله وهو الذي تدرب على تذوق المرارة بصمت بانتظار فرصة العمر

التي تنتشله وتجعله كائنا حرا يفعل مايريد ، وليس مايريده الآخرون ، وشيئا فشيئا يقدم تنازلات لمديره ويعود نفسه كيف ينافق أيضا ، فيقول للمدير بفمه : أنت صح ٠ وقلبه يقول : لكنك خطأ ٠ ويمكن أن يلقى تبريرات أخرى في جوانب عديدة من حياته لهذا المنهج حتى يتحول إلى كائن غير صادق وغير مستقيم فيسقط أول مايسقط بنظر نفسه ، وهنا تبدأ مرحلة السقوط الكبرى فيعيش هذا الشخص ذروة الألم / الذي لايمكن الإفصاح عنه، انتصار الشر ، سيادة الحظ الساخرة ، والسقوط الذي يتعذر إصلاحه للعادل البريء / ٠ عليه أن يتعلم كيف يردد ماتقوله الإدارة في العمل ، يردد مايقوله رجل الدين في الجامع ، يردد ماتقوله العائلة في البيت ٠ وهل بإمكانه أن يخرج عن الوظيفة ، وعن الدين ، وعن العائلة لمجرد أنه يريد أن يمارس حريته الشخصية التي ستتحول بالنسبة إليه إلى / نزوة / مادامت تلحق به كل هذا الضرر ٠ لكن رغم ذلك فمازال الأمل قائما ، ومازال في العمر متسع ليفعل به مايشاء ، سوف يأتي يوم يقول فيه مايقوله قلبه وفمه معا ، سوف يفعل أفعالا يقررها هو ٠ خلال هذه المراحل استطاع أن يكتسب أشياء هامة في مسيرة نضجه وخبراته ، فقد مضت خمسون سنة لم تتح له أن يقوم بفعل واحد يريده ، لم تتح له بقول كلمة واحدة يقولها ٠ وهذا يعني له الكثير ، فهو الآن يستطيع أن يقمع نفسه دون انفعال ، أصبح بإمكانه أن يحتمل الحرمان وهو يبتسم ، وقد يسخر من ذاك الذي لايتمتع بهذه الخبرة الكافية فينفعل ويودي بنفسه إلى التهلكة أو إلى الهوس العقلي أو التطرف الديني أو العزلة الاجتماعية ٠ ويمضي جزء آخر من العمر فيشعر هذا الرجل بقرب النهاية وتنطفئ أمامه آخر شمعة أمل ، فهو لم يعد قادرا على أن يتزوج ممن يريد ، ولن يكون

بإمكانـه أن يبـدأ مسـيرة كفـاح جديـدة يحقـق فيهـا طموحاتـه وأحلامـه التـي لـم تتحقق٠ وهنا وهو علـى فراش الاحتضـار تتمتم لـه نفسـه وهـي تحـاول أن تهدئ مـن روعـه : ياهذا ٠٠ احمـد الله الـذي وهبك مخيلـة مكّـنتك مـن تحقيـق أحـلام كثيرة علـى وسـائد ورديـة ، فكـم مرة عانقت المرأة التـي كانـت حلم حياتك ، كـم مـرة سـهرت معهـا فـي فـراش الزوجيـة وأنتمـا تتهامسـان وتتلاطفـان حتـى طلـع عليكمـا الصـبح ٠ كـم مـرة زرت الـبلاد التـي طالمـا تمنيـت زيارتهـا ، كـم مـرة استبدلت بيتك القديم هذا ببيت أفضل منه ، كم مرة قدت سيارة واتجهت بها مع أسـرتك إلـى الطبيعـة تـأكلون وتمرحـون فـي قلـب الربيـع وحـولكم الميـاه الجاريـة وألوان الزهور والخضرة وتغريد البلابل ، كم مرة احتجت إلـى مبلـغ فهرعت إلـى المصـرف تسـحب مبلغـا مـن رصـيدك دون أن تمـد يـد الـذل إلـى الآخـرين ٠ فيـدرك للتو قيمـة النعمـة ويتمـتم ملـئ فمـه : لكـن علـى أي حـال ، شـكرا لتلـك المخيلة السحرية على تحقيق كل تلك الأمنيات ٠

رحاب العدل

يمضي الإنسان العادل في محراب العدل بخطوات من نور ٠٠ تأتي هذه الخطوات لتعيد التوازن في مجتمع أصبح يعاني خللا في حالة اللاعدل ٠ إن وجود هذا الإنسان لايقل أهمية عن وجود الهواء والماء ليحيا هذا المجتمع ٠ ذاك إنسان عادل ٠٠ عبارة نطلقها على إنسان يقف في مكان ما ربما يتناول زجاجة كوكا كولا ، أو يشير لسرفيس ليوصله إلى بيته ٠ ننظر إليه ونقول لمن يسمعنا ، أو حتى نتمتم لأنفسنا : ياله من إنسان عادل مجيد ٠ يالها من عبارة تضيق بمعانيها الثرية ٠ هذا الإنسان يمارس سلوكا عادلا ويتذوق لذة العدل من سلوكه الشخصي والعام ٠ لقد منحه الله فرصة ذهبية ليكون عادلا وفرصة أخرى ليتذوق لذة عسل العدل ٠ لايكفي أننا نخطط ونرسم ونحلم كيف نكون عادلين مع أنفسنا ومع الآخرين ، ولكن مايهم هو عثورنا على المواقف التي نعدل فيها سواء مع أنفسنا أو مع الآخرين ٠ قد نجد رجلا متزوجا منذ سنوات طويلة ، ولكنه فجأة يتعرف بفتاة جميلة ويندفع إليها بقوة ، ويمكن أن نقول أنه بالفعل قد هام بغرامها ، فهل سيتذكر سنوات الألفة والمحبة بينه وبين زوجته ويتردد من أن يقدم لها طعنة قد تلحق بها أزمة نفسية حادة أو حتى أزمة صحية ٠ أم هل يؤثر عليها هواه الجديد ويؤثر حياة جديدة ينشدها مع هذه المرأة الجديدة ٠ أجل في كثير من الأحيان يسبب العدل ألما للرجل العادل فهو إن رغب في ممارسة العدل عليه أن يكون مستعدا لتذوق مرارة العلقم إلى جانب تذوق عسل العدل ٠ ولذلك قد تجد رجلا عادلا يعاني أزمات مالية أو

اجتماعية أو عاطفية أو وظيفية غاية في الحدة ، وإن كانت نفسه تنعم بحالة هائلة من الاستقرار ٠ لقد جاء الإسلام إلى الناس يدعوهم إلى العدل مع أنفسهم ومع الآخرين ، وعندما يتحقق العدل في الناس فإنهم يعيشون في مساحة من الأمان ٠ والعدل هنا يُعد درجة متقدمة من درجات العبادة ، فيمكن لموقف واحد من العدل أن يمحو عمرا كاملا من الذنوب ٠ فما يهم هنا هل أنك عادل أم لا ، وليس : هل أنك مؤمن أم لا ٠إن قوة العدل تطفو على أي قوة أخرى حتى أنها تجعل الكفر إيمانا ، فمادام هذا الإنسان قد جنح إلى العدل فإن هذا الجنوح قد أخرجه من كفره فغدا ينصر الله فينصره الله لقاء عدله حتى لوكان يقف على تاريخ من كفر كما ينظر شيخ الإسلام ٠ويشرح ابن القيم نظرته إلى الشريعة الإسلامية قائلا : / إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، وحكمة كلها ٠ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه / ١ ٠ وعلى هذا فإن الظالم لاينصره الله لأنه لم يُنصر الله بظلمه حتى لوكان يقف على تاريخ من إيمان ٠ عندما يمارس الإنسان سلوكا ظالما فلا يكون له ذلك إلابعد أن يُخرج الله ويُخرج الإنسان من قلبه ، وعندما يمارس سلوكا عادلا فلا يكون له ذلك إلا بعد أن يضع الله ويضع الإنسان في قلبه . وثمة أمثلة عديدة تشير بأن أي مجتمع كان إذا مارس العدل يحقق له العدل القوة والأمن والنصر . قال الاسكندر الأكبر لحكماء الهند وهو يرى ندرة الشرائع فيها : لِمَ صارت سنن بلادكم قليلة ؟

قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل ملوكنا فينا .

فقال لهم : أيما أفضل : العدل أم الشجاعة ؟

قالوا : إذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة .

/ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل / ٢ ٠ / وينظر الإمام الغزالي : / مقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ٠ فكل مايتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهومصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول ، فهو مفسدة ودفعها مصلحة / ٣ ٠ ويصف النبي صلى الله عليه وسلم العادلين بقوله : / إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا / ٤ ٠ إن الظلم مهما تمظهر بمظهر القوة فإنه مبني على هشيم تذروه الرياح ، والعدل مهما تمظهر بمظهر الوهن فإنه مبني على أسس لاتزحزحها أعتى الرياح ٠ ومن هنا فقد دخل العدل إلى أدق تفاصيل حياة الإنسان المسلم فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / إذا تقاضى إليك رجلان فلا تقضي للأول حتى تسمع كلام الآخر / ٥ ٠ وعن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه تقضى ابن أبي حدرد دينا كان له عليه في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته ، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته ، فنادى : ياكعب ٠ قال : لبيك يارسول الله ٠ قال : ضع من دينك هذا ، وأشار إلى الشطر ٠ قال : لقد فعلت يارسول الله ٠ قال : قم فاقضه / ٠ رواه البخاري ٦ ٠ ويقول عليه الصلاة والسلام : / من ابتلي بالقضاء بين الناس فليعدل بينهم في لفظه

وإشارته ومقعده ومجلسه ولايرفعن صوته على أحد الخصمين ما لايرفعه على الآخر / ٧ ٠ ويستمر الإسلام في دفع الناس للإصلاح فيما بينهم فعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم / ٨ ٠ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم / من أعان على خصومة بغير حق كان في سخط الله حتى ينزع / رواه ابن ماجة ٩ ٠ لقد مارس الإسلام العدل بحق الناس في مختلف وقائع حياتهم ٠ ومما يثير على العجب أنك ترى مفتيا في زماننا يفتي بقتل شخص بريء وشخص مذنب معا إذا كانا يقعدان في مكان واحد ، أو يفتي بقتل ثلاث نساء حوامل يجلسن في مكان يجلس فيه مذنب ، أو يركبن حافلة يركبها مذنب ٠ جاءت امرأة من بني غامد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة له : يارسول الله طهرني ٠ قال : وما ذاك ٠ قالت : إنها حبلى من زنى ٠ قال : أنت ٠ قالت : نعم ٠ فقال لها ارجعي حتى تضعي ما في بطنك ٠ فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، فأتى النبي فقال : وضعت الغامدية ، فقال : إذاً لانرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من ترضعه ١٠ ٠ وروي أن امرأة أتت النبي فقال : / إني فجرت فوالله إني لحبلى فقال لها : ارجعي حتى تلدي ، فلما ولدت أتته بالصبي فقال : ارجعي فأرضعيه حتى تفطميه ٠٠٠ / ١١ ٠

وروي أن امرأة زنت في أيام عمر رضي الله عنه فهمّ برجمها وهي حامل ، فقالت له معاذ رضي الله عنه : إن كان لك سبيل عليها فليس لك سبيل على حملها ، فقال عمر : عجز النساء أن يلدن مثلك ٠ ولم يرجمها ١٢ ٠ ولما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : أن أمة لرسول الله صلى الله عليه

وسلم زنت فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن أناجلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أحسنت) ١٣ ٠ وحتى عندما يكون الإنسان مريضا فإن الإسلام يتساهل في عقابه فقد أمر النبي في الرجل المريض الذي زنا : / خذوا له مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة واحدة / ٠ وجاء عن سعيد بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال : كان بين أبنائنا رويجل ضعيف ، فخبث بأمة من إمائهم ، فذكر ذلك سعيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : / اضربوه حده / فقالوا : يارسول الله إنه أضعف من ذلك قال : / خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ ثم اضربوه ضربة واحدة ففعلوا / ١٤ ٠ وحتى في الظروف الحرجة التي واجه فيها المسلمون حروبا فإن النبي وقبل أي شيء يأتي بأمير السرية فيجلسه إلى جنبه ويُجلس أصحابه بين يديه ويأمره قائلا : / لا تغلوا ولا تمثلوا به ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً ولا امرأة / .

وكما أن الإسلام يمنعك من الاعتداء على حياة الآخرين تجنبا للظلم فإنه كذلك يمنعك من الاعتداء على نفسك تجنبا لظلمها ٠ يقول عليه الصلاة والسلام : / من وجأ نفسه بحديدة حُشر يوم القيامة وحديدته بيده يجأ بها نفسه خالدا مخلدا في النار ، ومن تردى من شاهق حُشر يوم القيامة يتردى على منخريه في النار خالدا مخلدا ، من تحسّى سما حُشر يوم القيامة وسمُّه بيده يتحساه خالدا مخلدا في النار / ٠ فالشرع الإلهي هو الذي يحكم في الناس بالعدل ، وهذا الشرع يمنحهم حقوقهم أكثر مما هم يمنحون بعضهم بعضا هذه الحقوق ذلك أن الله يعلم مصالح عباده أكثر مما هم يعرفون مصالح أنفسهم

لأنه يعلم الغيب ولأنهم يجهلون هذا الغيب ٠ يقول ابن خلدون واصفا الشرع في الناس : / وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ، لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم في أمور آخرتهم / ٠ وماذلك إلا لأن الشرع كما يقول ابن رشد : / أعلى من الناموس العقلي / ٠ ولذلك فإن الآمال دوما معقودة على الحاكم الذي يكون عادلا وفق ما شرع له الله أن يكون عادلا ٠ يقول ابن الحداد في كتابه (الجوهر النفيس في سياسة الرئيس) : / أما بعد فإن من وصف الرياسة العدل في السياسة لتعمر البلاد ويأمن العباد ، ويصلح الفساد ، وتجري الأمور على وفق السداد ، وتنتعش الرعية وتقوى على أداء الفرائض الشرعية ٠ وتلك نعمة من الله أودعها قلوب الولاة والملوك ، والغني والصعلوك . والسياسة سياستان : سياسة الدين ، وسياسة الدنيا ، فسياسة الدين ، ماأدى إلى قضاء الفرض ، وسياسة الدنيا ، ما أدى إلى عمار الأرض ، وكلاهما يرجعان إلى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان ، لأن من ترك الفرض ظلم نفسه ، ومن خرَّب الأرض ظلم غيره ، قال أفلاطون الحكيم : بالعدل ثباتُ الأشياء ، وبالجور زوالها / * ثمة مقولة لجمال الدين الأفغاني يقول فيها : / لا تحيى مصر ولا يحيى الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولاعدل إلا مع القوة المقيدة / ٠ يبسط العدل جناحه على كل أحوال الناس ، فإن اعتدى عليك شخص ، ليس لك أن ترد على الاعتداء بأكثر مما أُ عتُدي عليك ٠ فرجل صفعك صفعة على خدك ، يجوز لك إن

* عاش ابن الحداد في ظل حكم بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل في النصف الأول من القرن السابع للهجرة .

شئت أن تعفو عنه اعتداءه عليك ، أو شئت أن عاقبته بأن تعيد إليه صفعة واحدة على خده كالتي صفعك بها ، ولايجوز لك بأي حال أن تصفعه صفعتين أو صفعة وشتيمة ، أو صفعة وكلمة بذيئة ، أو صفعة وركلة قدم .

إن العدل يبسط جنحه هنا فيمنعك أن تظلم أخاك ، وهنا حتى هو البادي وإن كان من أبناء الإسلام أو من غير أبنائه لن يكون لديه إلا أن ينظر إلى الإسلام من الداخل على أنه عدل كله . فهو شرّع للمعتدى عليه أن يعفو إن شاء ، ولكن بذات الوقت لم يظلمه بأن يفرض عليه أن يعفو عن حقه قسريا ، وهذا من شأنه أن يخفف جنحة الاعتداء بين الناس ، فترى أن الاعتداءات اليومية في غالبيتها تكون خفيفة حتى يكون الرد كذلك مماثلا ٠ يرتقي بك النبي وهو يدعوك بقوله : / إن الله تعالى جواد يحب الجود ومعالي الأمور ويكره سفاسفها. وان من عظم جلال الله إكرام ثلاثة: ذي الشيبة في الإسلام، والإمام العادل، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه / .

إن حاجتك إلى أن تكون عادلا مع نفسك هي أعلى من حاجتك لأن تكون عادلا مع الآخرين ٠ عندما تفشل في أن تمنح حق نفسك عليك ، لايكون بيسرك أن تنجح في أن تمنح حق الآخرين عليك .

كل ما آتاك الله من ملكات يطالبك بحقه عليك . إن لبصرك حق أن تريه ألوان بهاء الطبيعة ، ولسمعك حق أن تُصغيه لصوت عذب ، وللسانك حق أن تُجري عليه الكلم الطيب ، ولقدميك حق أن تخطو بهما في دروب البر ٠ ولايكون لك هذا إلا إذا اتخذت من السعي إليه سبيلا إليه ، فإن بلغت بسعيك مبلغ العدل ، كان لك أجر العدل وثمره ، وإن لم تبلغ بسعيك مبلغ العدل ، كان لك ثواب السعي إلى العدل وثمره . : / ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط

شـهداء لله ولـو علـى أنفسكم أو الوالـدين والأقـربين إن يكـن غنيـا أو فقيـرا فـالله أولـى بهمـا فـلا تتبعوا الهوى أن تعدِلوا وإن تلـووا أو تعرضـوا فـإن الله كـان بمـا تعملون خبيرا / ١٥ : / يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شـهداء بالقِسطِ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى /١٦.

جاءت امراه الى داوود عليه السلام

قالت: يا نبي الله أ ربك ظالم أم عادل ؟

فقال داود: ويحك يا امرأة هو العدل الذي لا يجور،

ثم قال لها : ما قصتك

قالت: أنا أرملة عندي ثلاث بنات أقوم عليهن من غزل يدي فلما كان أمس شدّدت غزلي في خرقة حمراء

و أردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه و أبلّغ به أطفالي فإذا أنا بطائر قد انقض عليّ و أخذ الخرقة و الغزل و ذهب،و بقيت حزينة لاأملك شيئاً أبلّغ به أطفالي.

فبينما المرأة مع داود عليه السلام في الكلام

إذا بالباب يطرق على داود فأذن له بالدخول

وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده مائة دينار

فقالوا : يا نبي الله أعطها لمستحقها.

فقال لهم داود عليه السلام : ما كان سبب حملكم هذا المال .

قالوا : يا نبي الله كنا في مركب فهاجت علينا الريح و أشرفناعلى الغرق فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء و فيهاغزل فسدّدنا به عيب المركب فهانت

علينا الريح و انسدالعيب و نذرنا لله أن يتصدّق كل واحد منا بمائة دينار، و هذا المال بين يديك فتصدق به على من أردت .
فالتفت داود- عليه السلام- إلى المرأة و قال لها: رب يتجر لكِ في البر والبحر و تجعلينه ظالمًا .
و أعطاها الألف دينار و قال : أنفقيها على أطفالك.

مراجع

١ – أعلام الموقعين ٣ /١٤
٢ – سورة النساء – الآية ٥٨
٣ – المستصفى ١ / ٢٨٧
٤ – صحيح مسلم ٣ / ١٤٥٨
٥ – جامع الترمذي ٣٩٥/٢ وقال الألباني : حسن ، صحيح الجامع الصغير ١٧٨/١
٦ – صحيح البخاري ١١٧/١
٧ – بلوغ المرام مع حاشيته للإمام الدهلوي ٢ / ٣٤٠
٨ – صحيح البخاري ٩ / ٩١
٩ – سنن ابن ماجة ٢ / ٧٧٨ ورواه الحاكم وقال حديث صحيح ووافقه الذهبي ٠
١٠ – أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب الحدود – باب حد الزنا – مسلم مع شرح النووي ١١ / ٣٠١ من حديث بريدة رضي الله عنه

١١ – أخرجه أبو داود – كتاب الحدود – باب في المرأة التي أمر النبي برجمها في جهينة ، سنن أبي داود ٢ / ٤٦٢

١٢ – أخرج ماروي عن عمر وعلي رضي الله عنهما في ذلك ابن أبي شيبة كتاب الحدود باب إذا فجرت وهي حامل انظر المصنف ٨٨/٧–٨٩ وذكر الحافظ في الفتح ١٤٩/١٢ وقال رجاله ثقات

١٣ – أخرجه مسلم – كتاب الحدود – باب تأخير الحد عن النفساء ، ومسلم بشرح النووي ١١ / ٢٢٦

١٤ – رواه الإمام أحمد – أنظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ١٦ / ٩٩ ورواه الشافعي في الأم ٦ /٩٩ وابن ماجة في سننه ٢ /٨٥٩ .

١٥ – سورة النساء – الآية ١٣٥

١٦ – سورة المائدة – الآية ٨

فردوس النقا ء

مهما بلغتْ المراتب العُلى بإنسان في سعة جاه ومال ونفوذ ، فإنها لاتبلغ أن تقدّم إلى روحه لحظة مجد حقيقية مالم تظلل روحه وريقات أشجار فردوس نقائه الذاتي .

في الليل عندما يستلقي المؤمن في سرير حديقة فردوس نقائه ، يهرول إليه الطير والشجر والنسيم من حوله ، كل يسعى جاهدا علّه يعثر على شوكة شر علقت بروحه في فسحة النهار ، فيقتلعها قبل الآخر .

ليس بوسعك أن تبلغ مرحلة متقدمة من مراحل قوة النقاء الذاتي مالم يكن بوسعك أن تبلغ مرحلة متقدمة من مراحل قوة الإيمان . إن أهل الشر في العالم هم على الدوام أولئك الذين تحول ربيع الإيمان الثري في تربة أرواحهم إلى صحراء قاحلة من اللاإيمان . عندئذ تفقد الحياة بنظرهم أنوار حيويتها ، ويفقد الآخرون تلقائية محبتهم الحقيقية . وتغدو الحقيقة الوحيدة في العالم بالنسبة إليهم هي (اللحظة) في دائرة داجية من روح الأنانية والإفراط في حب الذات .

يحقق لك الإيمان حالة كبرى من نقاء الروح فيبلغ بك مرحلة متقدمة تتحد فيها روحك بالله ، يغدو رضاك من رضاه ، ورضاه من رضاك ، سخطك من سخطه ، وسخطه من سخطك في حالة ارتقاء مشرقة مع إنسانيتك ، وعلاقة حميمية دافئة مع الله . حتى إذا تعثرت خطواتك في النهج وقادتك إلى حدائق المعصية المغروسة بأشجار خبيثة ، فإنك ماتلبث أن تجري منها جري الناجي بروحه شطر حدائق التوبة المغروسة بأشجار طيبة . تقعد في مياه جداولها وترفع عن روحك جنابة الآثام ، وتؤوب إلى صراط إيمانك المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

تنفتح ذراتك لنسيم هذا الفردوس ، فتغدو روحك في حالة سرمدية من الارتقاء بكل مدركاتك وحواسك . تدرك لحظتئذ كم أنك محظوظ لأنك إنسان ، كم أنك سيد ، كم أنك قابل للارتقاء نحو الله إلى أن يبلغ بك النقاء ذروته ، ويمد الله يمينَيه إليك ويُجلسك معه على العرش .

هــل أنا مســـلم

قبل أن تسأل نفسك : هل أنا مسلم ؟

سل نفسك : هل أنا محب ، هل أنا أمين ، هل أنا صادق ، هل أنا عفو ، هل أنا منتج ؟ .

السؤال الأول الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا محب ؟ هل لدي مقدرة على المحبة ، وهل المحبة تجاه العالم تغلب البغض لدي أم أن البغض تجاه العالم يغلب المحبة . وابدأ من ذاتك ، هل تحب ذاتك ؟ ثم انظر إلى تاريخ علاقتك مع ذاتك ، هل أحسنت إليها في هذا التاريخ أم أسأت إليها ، وهذا الاسم الذي تحمله هل استطعت أن تجعل الناس يذكروه بسوء ، أو يذكروه بطيب . وانظر إلى مرآة ذاتك ، هل أنت محب لذاتك أم مبغض لها ، كم مرة أهنت ذاتك وجرحتها فيك وفي الناس ، كم مرة وقفت ذليلا في الناس وفيك .

ثم انظر كم من مرة قدمت فيها أعمالا صالحة فخرت بها فيك وفي الناس ، كم من صلح لم يكن ليصلح لولاك ، كم من عسر لم يكن لييسر لولا تدخلك ، كم من خصمين أصلحت بينهما ، كم من سائل أعطيته سؤله . وانظر بعد ذلك إلى علاقاتك بالناس من حولك ، وابدأ بالمقرّبين ، ثم إلى مَن هم أبعد إلى أن تنتهي بالعالم . أنظر إلى أهلك ، إلى أقربائك ، إلى جوارك ، ثم إلى العالم الكوني من حولك ، كم من أفراد العائلة على خصام معك ، وأنت على خصام كم فرد منها ، ثم إلى أقربائك وجوارك والعالم ، هل العالم بنظرك هو عدو لك أم هو محب لك ، ولاتبغض أحدا فيه ، هل إذا نُصبت حاكما على العالم ستعاملهم جميعا كأسنان المشط وستنجح في أن تنظر إلى أعدائك وكأنهم

أولياء ، وتحسن أول ماتحسن إليهم ، أم ستقتلع بعض الأسنان التي تراها غير صالحة لأن يُمَشَط بها . يمكن لك أن تحصي هذا كله فترى إن كنت شخصا يحب أكثر مما يبغض أم أنه يبغض أكثر مما يحب .

السؤال الثاني الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا أمين ؟

ثم انظر إلى مواقف الأمانة التي تركتها ، كم مرة أديت الأمانة كاملة إلى أهلها ، كم مرة خنت الأمانة وألحقت الأذى المادي والمعنوي بمن ائتمنك سواء على نفسه أو ماله أو عرضه .

السؤال الثالث الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا صادق ؟

وانظر إلى ذاتك في مرآة ذاتك ، هل أنت شخص صادق ، أم شخص كاذب ، عندما تتحدث هل يغلبك الصدق أم يغلبك الكذب ، هل تجد في ذاتك ميلا إلى الصدق أو ميلا إلى الكذب ، وهل كذبت في تاريخك أكثر مما صدقت ، أم أنك صدقت أكثر مما كذبت .

السؤال الرابع الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا عفو ؟ وانظر إلى مساحات العفو في عمرك ، كم مرة عفوت عمن كانوا يستحقون عقابا منك ، بيد أنك عفوت عنهم ، عفوت عن مالك وعرضك وبدنك وسمعتك . هل كنت في ذاك التاريخ شخصا يتسامح أكثر مما يعاقب أم يعاقب أكثر مما يتسامح .

السؤال الخامس الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا منتج ؟

وانظر إلى صنعتك في الحياة ، هل تتقن صنعتك ، هل تقدم شيئا من خلال صنعتك لنفع الناس ، هل أنت شخص نافع في صنعتك تغتنمها في سبيل

عون الناس ، أم أنك شخص ضار تغتنمها في سبيل استغلالهم والاحتيا ل على حاجاتهم لديك .

يمكن لك أن تحصي هذه المواقف السلبية والإيجابية وتنظر في كفتَي الميزان .

واسأل نفسك قبل أن تسُأل : هل أستحق أن أدخل الجنة جزاء لذاك التاريخ الصالح الذي كنت أنا بطله ، أم أستحق أن أدخل النار عقابا لذاك التاريخ المهين الذي كنت أنا بطله . وإذا طُلب منك أن تكون عادلا بحق نفسك ، هل ستقودها إلى الجنة أم ستقودها إلى النار .

أ نــوا ر

* ثمـة أنـاس يبتغـون أن يسـري كـل شــيء وفـق مشـيئتهم : ألا يجوعـوا ، ألا يبردوا ، ألا يمرضـوا ، ألا يحزنوا . وأن يؤيدهم النـاس كافة من مختلف شتاتهم .
عجب أمر هؤلاء ، فإن تحقق لهم كل هذا فلأي شيء سوف يعيشـون .

* إن ضـرورة الحـزن والسـقام والجوع بالنسـبة للإنسـان فـي حضـن الحيـاة هـي كضرورة قر الشتاء ، وحر الصيف ، وسقوط أوراق الخريف بالنسبة للربيـع فـي حضن الطبيعة .

* علينـا أن نتـذكر دومـا أن الطعـام الطيـب يسـتمد طيبـه علـى قـدر مافيـه مـن حمض وملح وحاد وحلو ومر . علينا أن نتذكر أن الورود هي ورود علـى قـدر ما توخزها أشواكها وهي لاتكف من تقديم رحيقها لهذه الأشواك التي لاتكف عن وخزها كل ربيع .

* عنـدما يفقد المرء حريتـه الشخصـية فإنـه بعد ذلك يكون مسـتعدا لفقدان أي قيمـة إنسـانية أخـرى لديـه ، حتـى يبلـغ مرحلـة يشـعر فيهـا بأنـه يعيش بـلا قـيم إنسـانية ولا تترتـب عليـه أي واجبـات إنسـانية تجـاه انتمائـه الإنسـاني . لـذلك فإن

الأنظمة المحبة لشعوبها تحرص كل الحرص على تعزيز مساحة الحرية الشخصية لدى مواطنيها ، وتعتبر حقهم في ممارسة حريتهم الشخصية من المقدسات الإنسانية والوطنية الكبرى التي لايجوز المساس بها تحت أي ذريعة .

* دوما علينا أن نسعى لإصلاح الواقع ، لإصلاح السلوكيات السلبية التي تعشعش في نسيج هذا الواقع ، وعلى قدر ما يحالفنا النجاح في مهمتنا يأتي إصلاح أبناء هذا الواقع تلقائيا ومتساويا لخطواتنا .

* الحب هو شعور ذاتي بالإشراق نحو شخص آخر ، وليس القلب وحده هو الذي يحب ، ولا النظر وحده ، ولا النفس وحدها ٠ يسري الحب في شريان كل ذرة من الجسد والروح فتشرق الذرات لرؤية الذرات ويبدو المحبان لحظة اللقاء يسبحان في فلك من نور الحب حتى لوكانا في زنزانة مظلمة .

* لاشيء يبرر الاستسلام لليأس حتى لوتآمر العالم كله ضدك ، وانغلقت كل الأبواب أمام خطواتك ، عليك أن تصنع شيئا نافعا تقدمه للعالم ، وعندها فقط تشعر بقوتك العظمى في مواجهة الهزيمة ، وهذا هو الانتصار بعينه .

* دوما عليك أن تبحث عن فعل بطولي تقوم به ، لقد جئت إلى الحياة لتكون بطلا ، وعندما تحقق هذه البطولة ستكون قد حققت جدارتك بالحياة التي وُهبتْ لك . ليست البطولة أن تقدم الزهور لأولئك الذين يقدمون لك الزهور ، البطولة هي تقديمك الزهور لأولئك الذين يقذفونك بالأشواك .

* لاأظن أن أحدا قد بلغت بحواسه الحرائق ذروتها ما بلغت بي ، ولا أظن أن أحد ا بلغ ذروة لحظات النشوة وهو وسط هذا الحريق الشاسع مابلغتها . لقد بدا لي بأنني رأيت الجنة بعيني وأنا وسط اللهيب . ليس هناك من يتذوق لذة الطرب أكثر من ذاك الصوت المعذب الذي يشدو من شدة الألم ، يبلغ بروحه الشدو بابا يفقد فيه أي إحساس بحجم ذاك الألم ، وفي ذات اللحظة تهب على روحه نسمات نشوة غامرة لم تهب على مخلوق من قبله . إن أولئك الذين لاتحترق حواسهم في جحيم المعاناة ، لاتبلغ أنامل أرواحهم البتة أوتار النشوة الكبرى لتعزف عليها ، تلك النشوة التي تدفق بكل قوتها موازية لقوة النيران التي يحترقون بها .

* أحيانا نصر على البحث عن أمر غير موجود على الإطلاق في الإنسان ، لأن وجود هذا الأمر يُحدث خللا في كوننا أحياء نعيش في قلب الحياة . فنريد

زوجة كاملة ، وولدا كاملا ، وصديقا كاملا . وننسى أن الإنسان الكامل لم يخلقه الله حتى لنفسه ليعبده بصورة كاملة ، لأن خلق مثل هذا الإنسان لايلزم الحياة ولا يلزم الله ، كما أن الإنسان ذاته ليس بحاجة لكمال كهذا . تشرق الحياة وتمارس ذروة حيويتها كلما تعلّم إنسانها شيئا جديدا لم يكن يعلمه ، كلما يفتح عينيه ليرى شيئا لم يكن رآه . فيتدرج الإنسان في درجات الكمال ودرجات الشروق على الحياة على سلم درجات قربه من الله ومن نفسه ومن الآخرين ومن ظاهرة الحياة برمتها ، وهو ذاته بالمقابل يمنح للحياة معنى وقيمة لتتفتح وتشرق وتحقق ديمومتها وشروقها من خلاله . إن عظمة الإنسان المتميز تكمن هنا في مدى مقدرته للانسجام مع حالة اللاكمال هذه التي فطر عليها وفطر عليها الآخرون وتوجيه هذه الحالة نحو أعلى مراحل التطور بدل المحاولة اليائسة لاقتلاعها من فطرة الإنسان ، لأن الإنسان ذاته عندذاك سُيقتلَع معها .

* دوما ثمة متسع من وقت كاف لكل ماينبغي أن نقوم به ، ثمة وقت يكفي لممارسة طقوس العبادة ، وقت لممارسة الحب ، وقت لعلاقات اجتماعية ، وقت لنزهات وسفر ، وقت لتأمل وعمل ، وقت لنوم وسماع موسيقى ، ورغم كل ذلك يتبقى متسع من وقت للفراغ لانجد ما نفعل فيه . يكمن دورنا في مدى مقدرتنا على النجاح في أن نجعل أعمارنا غنية بهذا الوقت ، ونجعل هذا الوقت غنيا بأعمارنا .

* ثمة أمور في الحياة يحتاج تحقيقها إلى تأن وانتظار أكثر مما يحتاج إلى سرعة وعُجالة . فأنت لاتحتاج إلى عجالة حتى تنمو مدركاتك وتكتمل قدر حاجتك إلى التمهّل ، ولاتحتاج إلى عجالة حتى ترتقي في أجناس المعرفة قدر حاجتك إلى التأني . واعلم بأن الإنسان لم يكن يحتاج إلى عجالة حتى يبلغ ثورة التقنيات الكبرى قدر حاجته إلى الوقت ، وأن كل تلك الأحقاب البشرية الغابرة لم تكن خالية من عباقرة وأذكياء وعظماء ، وأن حفدة الحفدة ليسوا أكثر عبقرية وذكاء وعظمة من الأجداد أولئك . كن دائم الانتظار لتحقيق آمالك الكبرى ، إنها لاتحتاج منك غير الإخلاص في السعي إليها والانتظار حتى تأخذ وقتها المناسب لتبلغك مكتملة في سطوعها ورسوخها وقوتها .

* مهما كنت محبا لنفسك ، تذكر بأن الله محب لك أكثر ، مهما كنت حريصا على نفسك ، تذكر بأن الله حريص عليك أكثر ، مهما كنت رحيما بنفسك ، تذكر بأن الله رحيم بك أكثر .. ذلك أن الله محب أكثر ، ذلك أن الله حريص أكثر ، ذلك أن الله رحيم أكثر .

* إذا أحب إنسان أنسانا فإنه يمنحه بعض مالديه ،
وإذا أحب الله إنسانا فإنه يمنحه كل مالديه .

* عندما يقدّم الإنسان عملا طيبا ، لايقدمه إلا وقد فتح عينيه جيدا على أنه إنسان
وعندما يقدّم عملا خبيثا ، لايقدمه إلا وقد أغلق عينيه جيدا عن كونه إنسان .

* ثمة أناس يحرصون كل الحرص على أن يستمروا في عمل الخير حتى ينضجوا فيه تمام النضج ،
وثمة أناس يحرصون كل الحرص على أن يستمروا في عمل الشر حتى ينضجوا فيه تمام النضج .

* إن الكرة الأرضية برمتها لا تتساوى مع قطرة دم تُسفك من إنسان ، ذلك أن الله قد خلق الكرة الأرضية وما عليها خدمة لرفاهية الإنسان ، ولم يخلق الإنسان ليكون حارسا على الكرة الأرضية وماعليها . دوما فإن الذين يظفرون بنعمة الدنو من الله هم أولئك الذين نجحوا في إحياء الناس وليس الذين نجحوا في موتهم ، الذين يظفرون بالدرجات العلا من الجنة هم أولئك الذين نجحوا في نزع الأسلحة من أيدي الناس وليس الذين نجحوا في وضع الأسلحة بأيديهم .